لواحق المقتطف الشهرية

مارس ١٩٤٦

الفريد دي موسيه

شاعر الحياة والألم

بقلم

صلاح الدين الشريف

جميع حقوق الطبع محفوظة للمقتطف

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٦

تصدير

— ١ —

حفل القرن التاسع عشر بنخبة ممتازة من أعلام الأدب ، وصفوة مختارة من رجالات الفن وأعلام الفلسفة والعلم ، وقد ازدان بهم ذلك العصر ، وازدهرت بجهودهم الفذّة ، وبذوب آلامهم وتضحياتهم حياته الفكريّة ، فبسق عودها واكتمل رواؤها ، وتعدّدت أفنانها ، وكثر فوقها المغرّدون من صوادح الفن ، وبلابل الشعر والموسيقى .

كان عصراً فذّاً تفتحت فيه خصوبة الفكر على آفاق للحياة رحيبة ، ومجالات للنفس الانسانيّة بعيدة المدى . وما انبثق فجره حتى كانت استنارة القرن الثامن عشر قد استتمت دورتها « الكلاسيكيّة » . وهي استنارة قامت خصائصها على تمجيد طيوف الماضي وفضائل الحياة الطهريّة الخالصة ، والنظر إلى الحياة من جوانبها التجريديّة المتحرّرة من أوضاع الحاضر المحدود وقيوده المرهقة ، ومجانبة الاندفاع وراء بدع الوثبات الفكريّة العارمة ، وما يتبعها من الاجتراء على الأقداس والحرمات والسخر بمأثور التقاليد ومسنون العادات .

جاءت فاتحة هذا القرن بأحداث سياسيّة مدوية ، كانت بمثابة ردّ الفعل للثورة الفرنسية الكبرى ، انقلبت لها مقاييس الحياة التي سادت سابقه المنصرم . وراح الناس يتطلعون إلى مثل جديدة ومعايير مغايرة لما ألفوه في تركة الموروثات القديمة ، والخلفات المهجورة ، من رتابة مسئمة ، وأوضاع لا ينطاع حفافها وجمودها لانعتاقاتها الباطنة وتوقانها الدائم للعواطف المشبوبة ، والخيالات المتوثّزة ، التي تجمّل الحياة وتحملها تفيض بالتوثب والحركة ، وتضفي عليها أبراداً من السحر والروعة ، مهما نشأ عنها من هول وشذوذ ونكر !

لقد استنزفت أحداث الثورة الكبرى وما أعقبها من حروب طويلة وثورات مروّعة أعصاب الأبناء والحفدة الذين نجم منهم جيل مبلبل حائر، عكف على تضميد جراح الماضي بالاستغراق في لحظات الحاضر والفناء في فرص الحياة العابرة ونهزاتها العارضة، واستجاشة رواقد النفس، وتحريك كوامنها، وبعث ما هجع في أطوائها وعمايها المتعددة.

فهذه الحياة الانسانية المعقدة الأسباب المختلطة العالي بالسافل، أقصوصة من أقاصيص الخيال الشارد والسحر الخالب، وتجربة من تجارب الوجدان الطليق والعاطفة المرسلة وراء مشتهاها ومأمولها، ولكنها أقاصيص تشيع فيها رنة الحزن وتسري فيها رجفة التشاؤم واليأس، وتلوّنها مرارة التجربة وآلام المستور الخفي، الذي لا تبرح النفس التوّاقة متطلعة إلى استجلاء خوافيه، وكشف غوامضه، فإذا ما أجهدها الشوط فأقعدها عن الوصول الى مأمولها، وأعجزها الجهد عن كشف المستتر وراء المشاعر الظاهرة والاحساسات المتناقضة والاحداث المروّعة التي حفل بها العصر، نسيت مرارة الواقع بالاستغراق في سكرة الحياة المنتشية الحالمة، نعمي الكفيلة بأن تأخذ بمجموعهم، فلا يطلبون وراء متاعها ومرافهها وراء!

هذه الظاهرة الشاذة هي التي أطلقوا عليها « مرض العصر Le Mal du Siècle » وكانت سمة الحياة الأدبية والفنية وخصيصتها البارزة في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

في طليعة شعراء تلك الحقبة ومن أبرز كتّاب هذه الحركة الابداعية «Le Romantisme» وأشدهم شخصية وأخطبهم سيرة وأحبهم حديثاً وأرقهم إحساساً وأرهفهم شعوراً وأحفلهم خواطر وأبعدهم في الخيال مجالا « الفريد دي موسيه » الذي كانت حياته أقصوصة من أقاصيص الخيال، بل قصيدة حالمة رقيقة ذات درّها في موجة غامرة من الآلام المستعذبة، وأنساب شذا عطرها الحاد الغريب وسط جوّ مشبع بنفثات الوجدان المكلوم، وومضات العاطفة الحائرة القلقة.

هذه الآلام والأوجاع صاغتها نفسه الحالمة عمراً وجدانيًّا خالداً، سجل حياته المتسابقة دوماً في صدر الانسانية وطوايا الزمن، تهدي وتضلّ وتسعر وتروّع، وتبكي وتضحك!

— ٢ —

الشاعر رمز لعصره

لعلّ أفصح الدلائل وأوضح الصور على نفسية الشاعر أو الناثر ، هي آثاره التي تبين عن أطوائه المستخفية ومساربه المظلمة ، حيث تجد العواطف والاحساسات ، وشتى خوالج النفس ونبضاتها ، مسرحها الذي تتحرك فيه ، ومكمنها الذي تقرّ به وتهجع ، حتى تجد متنفسها في مظهر من مظاهر الاستجابة لحوافز الحياة ، وبواعث الشعور والحركة . وليس ثمة منجم أحفل ثراء بذخائر النفس ومكنوناتها ، من تلك النفثات المتوهجة بسعار الغرائز والجوارح ، المتلونة بحالات النفس في شتى انتقالاتها ، واستحالات مُثُلها وأشواقها . فهي مرآة مجلوّة الصقال ، تعكس لنا صور حياتهم متعددة الألوان ، مختلفة الملامح ، حافلة بما يبدد عنهم الرتابة المملولة ، والسآمة المضجرة ، مترعة الكأس بروائع الضمير الانساني وعجائبه ، وهو في دورته الموصولة أبداً بعوامل التجاذب بين اليقين والشك ، والاستقرار والثورة . ولا بدع في الأمر ولا تناقض ، فان تاريخ الموهوبين من هؤلاء الأفذاذ الخالدين ، إنما هو قطعة نابضة من تاريخ القلب الانساني كله بتناقضه وعجائبه ، محامده ومقابحه .

وليس الشاعر الفرنسي الخالد « الفريد دي موسيه » إلاّ واحداً من هؤلاء الذين انطوت أرواح عصورهم في نسيج أفكارهم وأساليب حياتهم . فهو لم يُمنح غريزة الإحساس المرهف ، والشعور المشبوب فحسب ، بل رزق معها موهبة التعبير الملتهب بحرارة الرغبات المحتجزة ، والخيال المتّقد بضرام الشوق إلى أحلام ومنى لا تصلها بالعالم الأرضي صلة الواقع المشوّه والوجود المحدود ، فجاءت أفكاره الهائمة ومشاعره الحائرة ولهفاته الوجلة ، مطبوعة بطابع مميّز لها ، خصيص بها . وهي في أصالتها وحرارة الصدق المنبعث من صرخاتها الشاجية ، وفي روعة آلامها المصوّرة لعذاباتها وفكركها ، تعد رسالة أمينة تنقلت إلينا أفكار ومشاعر جيل بأسره .

وهذه الترجمة الموجزة لحياة الشاعر تدلّ أوضح الدلالة على أن حساسية «موسيه» كانت مبعث آلامه، ومصدر شقائه، كما أنها كانت المعراج الذهبي الذي سما به إلى القمة من ذهاب الصيت وذيوع الشهرة، وهيأ له أن يحتل مكانه من ديوان الصدارة في الأدب الفرنسي.

استلهم «ألفريد دي موسيه» خياله ووحيه من الحب، مدرسة التضحية والتعذيب والألم، وطلع على أبناء جيله بغرر من القصيد، وطرائف من الشعر، هي صورة صادقة لكل نفس حزينة معذبة. وستطالع في هذه السيرة القصيرة الحافلة مأساة الحياة الانسانية كاملة، تلك المأساة التي هي حب وتعذيب وتكفير وألم!.

— ٣ —

أسرة الشاعر

يتصل نسب الشاعر بعائلة ترقى أرومتها إلى منبت من منابت المجد الأثيل، وتصعد سلسلة أسرته من ناحية الأم الى العذراء الشهيدة «جان دارك» التي ظلت سيرتها الشاجية، منبعاً خصيباً لكثير من الروايات والأساطير.

وحدث أن هاجرت أسرته من موطنها الأصلي بدوقية «بار Bar» واستوطنت بلدة «فندوم» في القرن الخامس عشر، إبّان حصار منيت به مدينة «أورليان» حيث بدأ بزوغ نجمها، فنبغ منها كثيرون برّزوا في مهنتي السيف والقلم، وقدّموا لوطنهم خدمات جليلة رفعت من شأنهم، وعزّزت مركز أسرتهم في المجتمع.

ولما كانت الطبيعة في خلقها للعظماء، وإنضاجها لمواهبهم وخلالهم، تهيء لعمليّة الخلق ظروفاً وعوامل متعدّدة، حتى تخرج الثمرة مكتملة ناضجة، فانها هيأت للشاعر هذا الجو المبدع الخالق، فالتقت في رحاب نفسه الناشئة مؤثرات البيئة الراقية المهذبة المترفة، تدعمها أمٌّ سرية الخلق مفرطة الحساسية، ووالدٌ تربى تربيـة عسكرية مثلت فيه خلال الرجولة القوية ولم تعدم فيه رقة الطبع ولين الجانب. وقد أزكت فيه هذه الرقة حب الانطواء على مضامين نفس محفوزة الى التورّع وأخذ الامور مأخذ التأمل، مما شجع والده أي جد الشاعر، وهو أيضاً من أفذاذ القدامى، على أن يجمع أمره ويعقد عزمه على إدخال ابنه

فيكتور في سلك رجال الكهنوت ، وكان قد تخرّج في معهد قدوم الحربي ، وقيل إن هذا العزم المبيّت لم يكن إلاّ وسيلة تمكن الجدّ من أن يوصي بثروته الضخمة الى نجله الأكبر ، وقد بادر مسارعاً الى إنفاذ هذا العزم ، بأن أبى تزويج إبنه فيكتور ، الذي أعدّ نفسه بالفعل للحياة الرهبانية ، لولا نشوب الثورة الفرنسية التي أنقذته من هذا المصير ، وقلبت في أعين الناس مقاييس الحياة وأوضاعها . فالثورة الكبرى هي المنبثق الاول الذي هيّأ للشاعر أن يبزغ نجمه في إبانه ، وما كان الشاعر لولاها ، إلا ذرّة متسربة في أطواء العدم ، لا يعرف عالمنا الارضي من أمرها شيئاً !.

***

وقد خدم فيكتور دي موسيه في جيش الثورة وشهد معركة مارنجو ، أيام مجد المعارك الامبراطورية التي شنها نابليون الاول على ملوك القارة وأقيالها ، وآب الى وطنه حيث شغل مركز رئيس لمكتب من مكاتب التفتيش بالجيش . وخلال هذه الفترة توفى والداه ، وكانت أواصر المعرفة قد جمعته بمسيو « ديزربيه » الذي أصبح صهره بعد أن بنى بابنته ، ثم نقل الى وزارة الداخلية ، ولكنه لم يلبث بها طويلاً ، إذ فصل منها عام ١٨١٨ متهماً بالتشيّع للنزعات الحرّة ، وكان فيكتور رجلاً مطلعاً لم يعدم حاسة الذوق الادبي ، ولم يثن له أولياء الامر الجدد ، أنه كان معنيّاً بإخراج دراسات حرة عن حياة فلاسفة الثورة وآرائهم ، وكان آخر مؤلف له في هذا الصدد رسالة عن « جان جاك روسو » ، علق فيها تعليقات حرة على مؤلفات الفيلسوف الكبير وآرائه ومذهبه في الحياة والاخلاق وسياسة الامم .

***

وبالجملة كان فيكتور دي موسيه طوال مدة خدمته في الحكومة ظهيراً للفقراء والبائسين ، نصيراً للمضطهدين . وقد جلبت له رقته الفطرية الليّنة كثيراً من المتاعب ، إلاّ أنها كانت مصدر تلك الشمائل الحلوة والصفات الكريمة التي جعلت منه رجلاً محبوباً من معارفه وخلاّنه ، وشخصية لطيفة النفس مهذبة الاحساس ، ترحب بها الاوساط التي كان يغشاها ويتعرّف الى زوّارها ، وطبيعي أن تكون هذه الصفات منتقلة ، أثرها العميق ، بطريق الوراثة في شاعرنا الحالم المرهف الحس .

— ٤ —

ميلاد الشاعر

وُلد « ألفريد دي موسيه » في الحادي عشر من ديسمبر سنة ١٨١٠ في حيٍّ قديم من أحياء باريس. وقد ظهرت عليه إمارات النبوغ ومخايل الذكاء الفطري منذ نعومة أظفاره، وكانت تبدو منه بين الحين والحين دلائل شتى بطبيعة مزاج نفسيٍّ مقلقل. كان مبكّراً في سرعة تقلبه وتحوّله من حال إلى نقيضه، وفي تعجله إشباع متعه، وإرضاء رغائبه ونزواته.

وممّا يحكى عنه تأييداً لهذه الحقيقة، أنه لمّا كان في الثالثة من عمره، أرادت أمه أن تصطحبه معها في زيارة أو نزهة، وطلبت أن تلبسه حذاء أحمر جديداً سرّ عين الطفل وملك عليه إعجابه، فاندفع في ثورة عصبيّة ليحث أمه على أن تسرع غير مشاطئة إلباسه إيّاه، وهو يقول لها: « إسرعي يا أماه، وإلاّ أصبح الحذاء قديماً ».

وقد يبدو هذا الحادث في نظر البعض أمراً يجري به مألوف العادة ويستقيم مع طبع الطفولة المتقلبة المتعجلة، ولكنه في حقيقة مرماه النفسيّ، دليل شوق لاهف ورغبة كامنة في حب التمتع والمسارعة إلى انتهاز غفلات اللذة قبل أن تولّي هاربة. وهي لذة تدرّجت في صورها من مشتهيات الطفولة الساذجة، إلى مطالب الشباب الحارّة المتوهجة، وأحلام الرجولة المريضة، وخيالاتها البعيدة السامقة.

بل إن نزعته الشهوانيّة الحسيّة ظهرت في صورة من الميل الغامض المبكّر، نبّه فيه غريزة الجنس، التي ما كان يحتمل أن تستيقظ في غير أوانها. ولو صحّت الرواية التي يرويها عنه أخوه « بول دي موسيه »، في ترجمته التي سجّل فيها سيرة الشاعر، لكان الأمر ضرباً من الشذوذ المستغرب، بل الشعور العاطفي المعقد، الذي قد يدلّ على بوادر الانتكاس في ضيعة حساسة مرهفة، لم تكن قد جاوزت بعد عتبة الطفولة الغريرة الساذجة!

فقد ذكر أخوه « بول » أن أوّل حبّ خفق له قلب الشاعر، يرجع عهده إلى عام ١٨١٤ عند ما كان « ألفريد » لا يزال طفلاً لم يتعدَّ بعد الرابعة من عمره! ويؤكد بول إن ذلك الحب

الفريد دي موسيه
من صورة بريشة الفنان تشارلز لاندل

الوليد كان من العمق بحيث ملك على الطفل جوارحه ، واهتزّت له نفسه ، ثم ما لبث أن تحوّل إلى صداقة ودودة ، أكدت لمعاشري الطفل ما انطوت عليه نفسه الرقيقة المتوقدة ، من إحساس باكر مستوفز ، يعزّ مناله ولا تجري العادة بمثله .

وقصّة هـذا الحب العجيب ، أنه اتفق أن زارت والدته فتاة من بنات عمومته تقطن مع أهلها مدينة « ليبج » واستمع اليهـا الطفل متيقظ الحواس متفتح الجوارح وهي تقصّ في بلاغة أخاذة وحلاوة مذوّقة ، وقائع الهجوم الأخير الذي شنته جيوش الأمم على فلول الإمبراطور نابليون في أيام مجده القليلة الباقيـة . ومن وقتئذٍ والطفل بهـا هائم وبها وامق ! ولما ختمت حديثهـا اقترب « ألفريد » من والدته ليستفسر عن أمر الفتـاة . وما إن عرف قرابته بها حتى بادر اليها مسارعاً ليطوّقها بذراعيه الصغيرتين ، وهو يصيح صيحة الطفل وقعت عينه على ما ينشـده ويطرب له « إنها لي وحدي ! سآخذها ولأحتفظ بهـا ، لا يشاركني فيها شريك ! » ، ولم يتوان الطفل في إنفاذ عزمه ، ولم يكاشفها مايكنه من ميل عديد اليها بقدر ما تساعفه لغة الطفولة العذبة الساذجة ، ليظهر لهـا مكنون اعجابه وحبه ! أما صاحبتنا فلم تشأ روحها المرحة أن تخيّب ظن الطفل أو تحطم قصور أوهامه ، فراحت تستثير خياله وأحلامه بما تقصـه عليه من قصص خيالية وخرافات سحرية . ولعلّ الناظر إليهما وهما متلاصقان على مقعد طويل بركن من أركان غرفة الجلوس ، وقد اختلطت أنفاسهما وتقاربت نظراتهما وتشابكت ذراعاهما ، في وضع هو أدنى الى أوضاع العشق والصبابة ، منه الى مجرد المجالسة والمحادثة ، ليعجب أيما عجب لهـذه النقيضة من نقائض الجنس ، تتمثّل بارزة المعالم في كل حركة من حركات هذا الطفل المعقد العجيب ! ! .

وتأبى القصة إلاّ أن تتمّ فصولها ، فالطفل جاد في طلب يدها وهو يلحف عليها أن تعده صادقة أن تتم معه مراسم الزواج في حضرة القسيس ، حينما يبلغ السن المناسبة . ولما أن حان ميعاد أوبتها الى بلدتها خنقت « ألفريد » العبرات ولم يتمالك بوادر انفعاله وغيرته ، وعندما سمعها تودعه قائلة : « لا تنساني » تهـدّج صوته الرقيق ، وأجابها في نبرة حزينة مستنكرة : « أنسـاك ! إن اسمك قد نقش بمدية في سويداء قلبي ! ! »

وعندما تزوّجت الفتاة وكانت تدعى « كابلي Clélie » وكان « ألفريد » لا ينفتأ يذكرها

ويحن اليها ويرجو وصالها ، اتفق أفراد عائلته على أن يكتموا الخبر عنه ، ولما أن بلغه النبأ « المشؤوم » ذات يوم ، كان له وقع الصاعقة على نفسه الرقيقة ، وهاله الأمر وأخذ يتساءل في دهشة الطفل المرتبك الملتاع ، الذي تبدد حلمه الجميل في لحظة ، وتحطمت لعبته العزيزة الغالية ، وهو لمّا يشبع منها نفسه ، لماذا سخرت منه وأخلفت ما واعدته عليه ؟! ولما هدأوا ثائره وأكّدوا له أنها ستكون أختاً كبيرة له تؤثره بعطفها ، وتصفيه مودتها وإعزازها ، أجاب إجابة المحب القنوع المخلص « إذن سأكتفي منها بحب الأخت وعطفها ! » .

روينا هذه القصّة العجيبة مفصلةً ، لتضع عينيْ القارىء على فرجة من هذه النفس الجياشة الحالمة التي استيقظت غرائزها وتنبهت جوارحها منذ الطفولة الباكرة إلى نداء العاطفة المرهفة ، وتطلعت لهفانة إلى لون من مذاقات الجنس ، وسارعت توّاقة إلى إجتناء ما في الحياة من لذائذ ومتع ، وذلك دليل على مزاج شهويّ باكر . كان له في مُستأنف حياة الشاعر أعمق التأثير وأخطر الأثر .

وقضى ألفريد دي موسيه سني طفولته في عصر حفل بأحداثه الجسام ، وقلاقله المتلاحقة ، وانقلاباته الداوية ، وشهد مصرع المجد الامبراطوري ، وانهزام النسر الكبير ، وإيداعه قفص المنفى السحيق .

وكانت نفسه الشديدة اليقظى ، وحسّه الدقيق المرهف ، ينفعلان بأصداء هذه الهزاهز المتعاقبة ، تصدم بدويّها الرهيب جوارح أبناء الجيل ، وتزلزل أركانهم ، وترجّ كيانهم ، وهي لا تني متوازرة متزاحمة ، يأخذ بعضها برقاب بعض . ويحدثنا شقيقه « بول » أن « ألفريد » كانت تتملكه في الحين بعد الحين ، بوادر من الغضب المكتوم ، لا يملك إلاّ أن يتنفّس عنها بهاطل من الدمع الهتون ، وهو ينصت مفجوع القلب ، إلى حديث المصائب التي إنصبت على رأس فرنسا بعد هزيمتها الكبرى في واترلو ، وما أثقل كاهلها من فوادح التبعات ، وباهظ المغارم ، وإن كان لم يدرك لصغر سنه مدى هذه المصائب وما خلّفته تلك الأحداث الرهيبة من عمق الاحساس بوقْع الفجيعة في نفوس أبناء الجيل ، ولكنه كان لفرط ما يسمع من ذويه ، ومن كانوا يلابسونه في بيئة البيت من أصدقاء وخلان ومعارف لأهله ، دائم الحسرة سادر النقمة على هذا العثار الذي مُني به وطنه . ولعله ، وهو يشهد جحافل البروسيّين المدجّجة تدخل

باريس دخول الظافر ، قد طاف بمخيلته طائف من الأحلام الصبيانية المثيرة . وهو يتصوّر فارساً من فرسان الأساطير قد هبّ لمطاردة هؤلاء الدخلاء الغاصبين وراح يعمل سيفه السحريّ في أقفيتهم وظهورهم فلا يدعهم إلاّ مِزَقاً مشتتة وأشلاء عزّة ، على نحو ما كان يسمعه من صديقته « كليلي » ويختزنه في طوايا واعيته الباطنة من أقاصيص الجان والمردة ، وأبطال الخيال والسحر ، الذين تُنسب إليهم عجائب الأفاعيل !.

حقّـا لقد كان الطفل فذّا في خياله ، فذّا في ذكائه ، فذّا في رهافة الحسّ وتوقده ، فذّا علماً وعاطفة واختزانه وآثار بلابله وأشجانه ، وهو بعد طفل لم يخط الى عامه السادس ، أي في المرحلة الأولى من مراحل عمره القصير الحافل !.

— ٥ —

مرحلة التعليم

وما حلّ عام ١٨١٧ حتى انتظم « ألفريد » مع أخيه في سلك الدراسة في معهد من معاهد التعليم الابتدائي ، وكان الخلاف على أشدّه يومئذ بين أنصار الملكية ودعاة الحرية وأشياعها . وطبيعي أن يكون لهذا النضال الناشب بين الفريقين في عنف وشدّة بعض أثره وصداه في أفكار غلمان ذلك العصر وصبيته . ولم تكن سماحة الرأي وحرية النقاش وسعة الصدر واحترام العقيدة بالصفات التي تتسم بها حتية من الفتن كانت قد تردّت الى الحضيض الأوهد من جحيم الحزبية .

ومن ثمّة لم يكن نصيب المتعصب لعقيدته وبخاصة إذا كان ملكي النزعة أو أمبراطوري الهوى ، إلاّ الاضطهاد المرّ والتضييق الجائر والملاحقة المزعجة من الفريق الآخر ، فلا عجب أن كان « ألفريد » وأخوه ، وهواهما أجمع مع الامبراطور الذي طوّحت به الأقدار الى منفاه السحيق ، لا يلقيان من رفاقهما وأساتذتهما في المدرسة ، وهما الساذجان في إظهار متجه هواهما وخبيئة ميلهما إلاّ الاضطهاد والتضييق البالغين ، وقد خلفت هذه الذكريات المدرسية الموجعة صداها المرّ في مشاعر الصبي « ألفريد » ، فلا غرو ان كانت قاعدة من القواعد التي بنى

عليها فيما بعد فكرة كتابه الرائع « اعترافات فتى العصر » والعين الثرّة التي صدرت عنها مواكب خطراته وسوانح أفكاره .

وما انقضى طويل وقت حتى ضاقت نفس الصبي بهذا السجن الضيّق وبرمت بهذا المحبس الموحش الذي لا يجد فيه منطلق خياله وشبع حسه ، فهو يستشعر في صرامة نظمه ما يأخذ على عقله سرحاته الحالمة التي تفيض بالتأمل ويرتي حواشيها ذهبيّ الآمال . ولم ينقذ الفتيين من حياة المدرسة الرتيبة المرّة إلاّ إصابتهما بحمى « الحصبة » ووقوعهما فريسة لأوجاعها الناهكة . ومن ثمة اعتكفا بالمنزل حيث تلمذا لأحد المدرسين يتلقيان عليه علومهما الأولية ، فضلاً عن دروس الانشاء والبيان ومقطوعات من النثر والشعر تناسب سنهما وملكاتهما .

ولما كان « ألفريد » ميّالاً بطبعه الى القصة معلقاً فؤاده ، منذ أن تنبهت فيه غريزة التطلع وشبت عنده ملكة الخيال، على كل ما يروى له، وهو ملق بسمعه ووعيه وبكل جارحة تنبض فيه الى من يقص عليه ويروي له ، فإنه قد وجد الفرصة المتاحة ليُشرب نفسه وحسه وذهنه وخياله بهذا المتاع العقلي المحبب اليه ، يستهلك في أجوائه الفنيّة وآفاقه الحالمة شوقه الذي يلعج قلبه الصغير ويستفزّه الى طلب الأقصوصة التي تشبعه والافكوهة التي ترضيه . فليس من عجب إذن ، أن نرى هذا القارىء الصغير ، قد غرق في مطالعاته القصصية الى أذنيه . والواقع راح الفتى يعبّ في نهم ولذة كل ما صادفته يده من قصص وروايات ، قصرت أو طالت ، موضوعة بلغته أو منقولة عن غيرها من اللغات . وفي هذه الفترة التي تفيض بالخيال العاطف والتأمل الحالم، قرأ «ألفريد» رغم صغر سنه قصة «ألف ليلة وليلة» واستنشى فيها ، وفي غيرها من القصص الفارسية والعربية ، جوّها العطريّ الفاغم واجتلى إهابه المسحورتين بمجالي الحياة الشرقية الساحرة ، تعرض على لوحة مخيلته أبدع الرؤى وأمتع الصور وأروع التهاويل !

لقد سكرت حواس الفتى الناشىء بتلك الحياة الحليمة العذار ، وهي تعرض عليه مشاهد مُطرّزة من العواطف المشبوبة والغرائز المستعرة ، وما من شكّ في أنه قبس منها ومعجماً حافزاً بي له زاداً وعتاداً يلهمه أفانين من القول والفعل طوال أيامه التي عاشها .

على أن ميل « ألفريد » الفطريّ الى التقسم بالجو القصصي الحالم وجنوح مشاعره الى

الاستغراق فيه ، قد حبب اليه أن يحيا عن طريق التمثيل ، حياة أبطال القصص وينهج ، ولو بطريق الحركات والتعابير والاشارات المسرحية ، منهج شخصياتها الآخاذة ، وكأنما قد أحسّ في هذا الجو تفريجاً لطمحات نفسه وتنفيساً عن المختزن المضمر في حناياها من الاحلام والخيالات، ومن ثمّ راح يتخذ بمعاونة أخيه «بول» ، من أثاث البيت وحجره ودهاليزه مسرحاً يخرجان عليه ، بصحبة من الاتراب والاخدان ، تلك المشاهد والمواقف التي سحرت خياله وحركت في أعماقه كل نابضة ، ونبهت كل خامدة !

فهو دائب في ساعات فراغه وأوقات خلوته ولهوه ، على هـذا التمثيل والتخريج الذي أفعم نفسه بجوّ من الرموز والاسرار والخواطر ، كان له من بعد أكبر الاثر في تعميق ميله الى مبحات الفكر الشاعري التي بثّ فيها وهو شاب مكتمل الأشدّ ، آراءه وجماع فلسفته الخاصة عن كثير من الحقائق والمتناقضات ، وحاول أن يصوغها للمسرح قصصاً تمثيلية تحلّل عواطفه وتسجل آراءه في الحياة والأخلاق والناس.

وكانت العائلة تقطن وتتخذ مسكنها بشارع «كازيت» وهكذا بقي حال الفتى يسير على هذا النهج الذي اختطه لنفسه ورسمه لمواهبه ومواياته ، طلقاً حرّ نفسه على قاربه مستمتعاً بفسحة من الحريّة يحسده عليها رفاقه ولداته ، إلى أن انتقلت عائلته في عام ١٨٦٨ إلى منزل آخر مهجور في ضواحي باريس ، يقع بشارع « كليبي » . وكان البيت الجديد يشبه الاديرة في طراز بنائه وترسيم واجهته . ولكن حديقته كانت متسعة الجوانب كثيرة الأشجار غاصّة بالظلال ، ففرح بها الصبيّان واتخذا منها مسرحاً جديداً يعاودان فيه تمثيل ما يقرآنه من حكايات وقصص ، مواصليْن حياة لاهية ، هي أقرب إلى الفراغ والتبطّل ، تجري وفق الغريزة وتسير جنباً إلى جنب مع طباع الطفولة الحرة وأعصابها المتوثبة الجفلة .

وكانت الحديقة تنتهي إلى حقول المزارع والمغارس المترامية ، مُدهامّةً في ضباب البعد ، آخذة العين بما يتعاقب عليها في ساعات النهار المختلفة من انعكاسات الظلال والألوان وحركات السحب ، مشنّفة الأذن بما يرن في جوانبها من أصداء وصدحات ترسلها الطيور المترعة الشادية ، وهي تعادي أوكارها وتراوحها .

وكان التلميذان الصغيران يواصلان تلقي دروسهما في مبادىء التاريخ وعلم تقويم البلدان ،

ويستظهران نماذج من النثر والشعر بمجلس الدرس المعتود بالحديقة ، أو في المزارع ، وسط هذه الطبيعة الغنيّة الحافلة بألوان الجمال والجلال .

وفي نوفمبر من هذا العام عادت العائلة إلى بيتها الأول بشارع « كازيت » وكانت الدار القديمة موحشة قابضة ، لضيق رقعتها وانحسار مدى مرماها عن جدران البيوت الأخرى المتكاثفة ، التي تحيط بها إحاطة تكاد تأخذ عليها منافذ الجوّ ومسارب الهواء .

وما كان العجب ليداخلنا ، وقد رأينا طباع « ألفريد » لا تلين أو تناس إلاّ في جوٍّ من الطلاقة الخالصة من عقال الحواجز ، الباسمة المشرقة لكل جوٍّ مرح حافل بألوان السرور والبهجة ، ما كان العجب ليداخلنا إذا رأيناه في أوبته مع أسرته إلى البيت الأول حزين النفس كاسف البال متجهّم صفحة الوجه ، فهو يرم بوحشة هذا البيت ، مهتاج العصب لهذا الحيّ المزحوم بأبنيته وشواهق جدرانه ، الموقر منذ طلعة الصبح حتى مهبط الليل بأصداء زياط لا ينقطع وأصوات ضجيج يهزّ الأعصاب المرهفة المتوثبة . حقّـا شتان الجوّان ، ويا لبعد ما بينهما من فارق ، وما أثقل ما يتركه هذا الفارق من ضيق وسخط وتورق تلهب مشاعر الصبي ، فتجعله عصبيّ المزاج ساهر النقمة ، وهو لا يكتفي بأن يجعل من نفسه المستوفزة ميدانًا لجيشان هذا السخط ، واصطراع ثوائره ، بل يجاوزها إلى ميدان البيت ، يفرغ فيه فيض تلك الثورة المحتجزة ، فينهال على أثاثه ورياشه تحطيمًا وتمزيقًا ، غير عابئ بشيء ، ولا منصت لصوت ناهٍ أو زاجر ! .

ولعمري ليس أقوى من هذا دليلاً على شدّة تعلق الشاعر وعمق ذلبه بالجوّ الطليق الحر ، وخاصة إذا تمثل له في نزهة المكان وراحة المثوى ، وجلوة للطبيعة العذراء تسفر له فيه [illegible] وهي يكن من شيء فإن شاعرنا ما زال موكولاً بإرتياد أسفار تلك الحقبة المدارة على مطالعة القصص ، ونقع غلته بما يأتيه من روائعها ، ولاسيما تلك التي تمثل معارض الفروسية وتهيج بمواقف البطولة وأمجادها ، وما يتخلل ذلك من صرعات النفوس وانكدارات الأرواح ، لكثرة ما يعرض لها من غمرات الفناء والهلاك ، خلال معاركها المؤججة .

وقد كان أمثال القصص التي تدور حول « تحرير أورشليم » ووصف حروبها التاريخية

وأحداث بطولتها الدامية ، تستهويه وتهزّ أعماقه وتثير رواقد شعوره الباطن ، وتفتح عينيه الحالمتين على عوالم النفوس الكبيرة ومصارع أهوائها وأحلامها ، فتتفتح في نفسه فُرَجٌ جديدة تلزمها ميوله المستقرة وراء وعيه، وهي ميول تشي بمزاج ثائر متقلب. وان غلبت عليه في أكثر الأحيان النزعة الحنونة الحالمة التي تطامن من حدّته وتخفف من وقدته ، وتسمو به إلى سماوات الوداعة واللين والرقة.

وضاق المدرّس ومعه أهل الشاعر ذرعاً بسرف الصبي في إشباع هوايته قراءة وتخريجاً وتمثيلاً ، وبمن كان يشركهم معه في هذا التمثيل والتخريج من أتراب الصبية الآخرين ، فيلهي في ثورة الجلبة ومعارك الكرّ والفرّ المصطنعة ، واجب التحضير حيال دروسه ، ماداً أبداً الى قتل الوقت بالإمعان في أذنين عبثه وتبدّل وطوره ، ومن ثمة لم يجدوا بدّاً من أن يدخلوه معهداً نظامياً يتخرّج فيه ، وألحقوه بالقسم الخارجي من كلية دمري الرائع.

ومن طريف ما يحكى عنه في هذه الفترة ، أنه رجع في مساء اليوم الذي أدخل فيه ذلك المعهد باكياً ناشجاً ، تحرق مباسم سخطه وتتوقد زفرات غضبه . لقد سخر منه زملاؤه ، وركبوه بالدعابة القاسية وطالعوه بالأحكومة المحجة ، عندما وقعت أنظارهم عليه ، وقد أرسل شعره الذهبيّ الوحف ، يتدلى قريباً من كتفيه ، وعجبوا لتلك الثياب المهندمة على صورة هي أقرب الى زي النساء ، منها إلى زيّ الصبية الذين هم رئده في العمر .

حقاً لقد كان ألفريد منذ طفولته الباكرة فتياً وسيماً فاتن الدامة، فلا غرو تختار له أمه من الهندام والزيّ ما ينسجم ، في رأيها ، مع هذه القسمات الحسان وتلك الملامح الحلوة فجاءت ثيابه في جملتها وتفصيلها مظهراً لذوق نسويّ محض لا تتفق رقته ونعومته مع خشونة طباع الناشئة من الصبيّة ، وما فيهم من ميل فطري إلى الانطلاق في جوّ من المرح والمرج والجلبة والتعارك أثناء لهوهم ولعبهم ، وهو جوّ لا يوافقه الا مرادفة الخشونة التامّة في اختيار هندام لهم واختصاصهم بزيّ لثيابهم .

وهكذا ضيّق المقرّبون بهذا الشعر الذهبيّ الأشقر ، واستبدل صاحبه بثيابه ثياباً أخرى تجدر بأمثاله من الصبية ، وانطفأت ثورة سخطه باندماجه في جمعه وتجانسه مع حوله .
وأظهر « ألفريد » منذ بداية دراسته بالكلية تفوّقاً ونبوغاً نادرين ، وقد تحلى أثر

هذا التفوّق والنبوغ في أسلوب إنشائه ، فقد كان مُجلياً في توليداته ، بارعاً في صياغة عباراته ، مرهف الذوق ، دقيق الحس خياليّ المزاج فيما يسوقه من أفانين تصويره ومعارض أوصافه . ولا جَرَم كان لمطالعاته القصصية الطويلة ، أثر قوي انطبع في مخيلته وغذّى ملكة الابتكار عنده ، وترك ميسمه ظاهراً واضحاً في كل ما كان يكتبه في كراسته المدرسية من موضوعات لا نكون غالين إذا قلنا إن كثيراً منها ، إذا راعينا سنه ، بلغ مرتبة النماذج المختارة والمنتخبات المنتقاة .

وتوالت أيام الدراسة وتعاقبت فتراتها ، وإذا بحساسية الشاعر المفرطة ، تصوّر له في لحظات احتجازه وانطوائه على نفسه ضروباً من الأوهام والخيالات ، تتخذ صورة الأشباح والأطياف ، فهي رؤى تملأ عليه ذهنه في اليقظة ، وتسحره وتبهره في مراقد أحلامه . فلما أن اشتدت عليه وطأتها ، أحسّ بحاجة لاهفة الى من يفضي اليه بسرّها ، عساه يشاركه معتقده في ثبوتها وحقيقتها . وكان يجتمع بأخيه « بول » ، بعد أن فرّقت معاهد التعليم بينهما للحاق كل منهما بمدرسته ، أيام الآحاد ، وهي عطلة الاسبوع . ففي ذات يوم أفضى بخالجته هذه الى أخيه ، مستطلعاً رأيه في حقيقة الأشباح ، فما راعه منه إلاّ استهزاؤه وسخره بهذه العقيدة الفطرية البالية ، عقيدة « الجن والسحر » وتأكيده في لهجة المؤمن المستوثق ، أن أمثال هذه الخرافات لا تخترعها غير مخيلة مؤلف من أمثال مؤلفي « ألف ليلة » ومن جرى في الخيال مجراهم ، واشتط في التخيل والتهويل شططهم .

وقد أسف « ألفريد » لعدم مشاركة أخيه له في معتقده ، إذ كان يؤمن في قرارة نفسه بما تصوّره له مخيلته الطفلة من أن الانسان إذا لم يستطع أن يتجرّد أو يفنى عن جسمه حتى يصير كائناً غير مرئي ، فان في مقدور حيلته أن تصطنع له من ألوان السحر ما يعتاض به عن هذا العجز الكامن في طبيعته ، فيملك من خفيّ القوى ما يصوره في أعين الغير بصورة عفريت من عفاريت الجن ؟ !

وكان « ألفريد » في عُقبى كل حلم من هذه الاحلام ، يحسّ كأنما قد جهده ، وأن يداً غليظة خاشنة أخذت بكظمه ، وردّته الى متاهة من الصمت المروّع ، تستفيض موجاته استفاضة تستغرقه ، ولكنه ، مع ذلك ، يعاصر في أذنيه بأرانيه الخرساء الموحشة ، ويجعله

صامتاً جامداً لا يعي من أمره غير خفقات لقلبه كليلة خانية ، تتجاوب أصداؤها البعيدة كالهدير المكتوم بين أضالعه ، ثم لا يلبث أن ينتشر الخدرَ يتدسى إلى أعماقه ، ويحمله الى عالم غريب من الأحلام والرؤى ! .

وكانت هذه الحالات الغريبة تتناوبه في الأغلب على فترات متقاربة ، وهو إن ضاق بها حيناً ، حنَّ إليها أحياناً ، وترقبها ترقب المتلهف على ما يغذي نزعته إلى الخيال الغريب والصور المفزعة ، التي تدني من مقدوره الغرائب والمعجزات وتصوّرها في وهمه أشياء هينة تافهة ! وكأنما قد حان الوقت الذي يتخلص فيه الصبي من أوهاق هذه العقدة الموبقة ، وتغرب عن فكره خيالاتها المزعجة ، نوقعت في يده قصة الكاتب الأسباني « سرفانتس » وهي المعروفة باسم « دون كيشوت » ، وطالع فيها « ألفريد » وقائع البطولة الوهميّة وتمامل ملامحها المزيفة ، فتبدلت حالته النفسية واستطاعت هذه القصّة الفذّة أن تضع حداً لميله إلى عجائب الفروسيّة ومعجزات السحر والسحرة .

وهكذا انقضت عند « ألفريد » فترة الحلم بالعجائب والمعجزات ، في وقت كانت تبدأ في غزو عقول غيره من الصبية ، ولم تخلّف وراءها سوى أثر شعري رقيق ، وميل إلى اعتبار الحياة قصة من قصص المفاجئات والأعاجيب ، يلعب فيها الحظ دوره الأكبر ، عابثاً أبداً بمصاير الخلق ومقدرات الحياة ! ويظهر منه هذا الميل بأجلى معانيه في قصصه التي أدار حوادثها حول أشخاص وهميين نسب إليهم أفكاره ومشاعره التي كانت تخالجه خلال تلك الأزمات .

وفي صيف عام ١٨٢٢ رحلت العائلة إلى بلدة « فندوم » لقضاء العطلة عند عم « ألفريد » بقصر « كونييه » وكان فرح الصبي بالغاً عند ما استشرف لقصر العائلة القديم وطالعت عينه ذلك الطود الشامخ . وكان البناء قديم الطراز على نمط القصور القديمة ذات الدهاليز المتعددة والأقبية المظلمة والمسارب الخفيّة والأروقة الممتدّة .

وقد أثارت قاعات القصر الموحشة ومساربه المتشابكة وجدرانه الصمّاء العالية ، بلابل الفتى وهزّت كامن شوقه ، مرة أخرى ، إلى حياة الأشباح والخيالات ؛ ولكنه شوق ما التمع سراجه وتوهجت شعلته حتى خبا وانطفأ ، إذ لم يعد من وراء استطلاعاته وجولاته خلال

بجاهل القصر ومهجور أجزائه بغير انقبار الحائق وأفسحة الغابات المقارنة ثمرادنها في خلوات الجدران وعالي الأقبية، وهناك أيقن «ألفريد» أن وساوس الوهم يجب أن يسدل عليها ستار صفيق من النسيان ، فلا تعود تلقي في روعه الاضطراب والوجل ، وتركه بالذهول والحيرة .

وتكررت الزيارة عام ١٨٢٤ ، وكان «ألفريد» قد بلغ الرابعة عشرة من عمره . ويحدثنا «ألفريد» من ذكرياته السعيدة عن تلك الاجازات المروحة وأوقاتها الهنيئة الحلوة، أنه كان يقضي صحابة يومه منتشياً حالماً ، فهو تارةً في نزهة خلوية يجوب فيها أرباض الناحية ومروجها ، وتارةً يصطحب بندقيته في جولة من جولات الصيد مع أخيه ، وآونةً ثالثة يحمل ديواناً أو أكثر من دواوين الشعر التي تروق في عينه يقتل بها الوقت وهو مستند الى جذع شجرة فينانة تسدل عليه ظلالاً ندية من أفنانها الوارفة المتهدلة .

***

أما أمسياته فكان يقضيها بين « البلياردو » و « الشطرنج » فهما سلواه في صدر الليالي الطويلة الساجية . ولم تكن تخلو رسائله التي يبعثها من مصيفه الى الاثيرين من صدقائه وأصفيائه ، من ترنيمات متوهجة بسعار الغريزة الجنسية ، التي استحرت وجاشت في طلب المنيض والمتنفس . فهو في سن المراهقة ، دائم التحدث عن الجميلات من الفتيات اللاتي يريد أن يحل بينَّ حباله ويبثهنَّ هيامه وإعجابه ، ولو عن طريق التخيل والتمني ! ولعلَّ تلك الرسائل الناطقة بسورات الشباب وخواطر المراهقة القلقة الولهانة ، وهي التي تبادلها مع صديقه وزميله في الدراسة « فرديناند دورليان » — الدوق دي شارتر فيما بعد — دليل بيِّن على استعار مزاجه الجنسي وتلهفه الحار على الأليفة والعشيقة التي تستجيب وإياه لنداء الجنس . وكان في تلك الفترة يديم قراءة شكسبير وشيلي ، وكان هذا الأخير يستهويه بالعواطف المؤججة والمشاعر المتقدة ، ويهزه ما فيها من غرام وحدة .

والحق أن هذه الرسائل وإن كان لخواطرها الشاجية مدًى بعيد في نفسه جعلها تزخر بالمراحص و بلاس والشكوك ، إلاّ أنه كما يقول في إحداها « ما كان ليفقد روحه الفرامي الأمور، ذلك الروح الذي يحن عندما يرى له المعاندة السعيدة فتاة أحلامه الجميلة ، فتأخذ

بيده من وهدة هذه الشكوك والوساوس ، وتلقي على ظلماتها بنظرتها الساجية الحلوة فتذهب بها أباديد !

وتمرّ على الفتى الأيام والأسابيع والشهور وهو عاكف على دروسه ، مُجد في استذكارها دائب على تثقيف عقله بما يطالعه ويتذوّقه من طرف الأدب وغرر النثر والشعر ، حتى هيأه ذلك إلى أن يكون دائماً في طليعة صفه وفي مقدمة زملائه من الطلبة . وكان مستقلاً في كل ما يرتئيه ويفكر فيه ، فله طابعهُ الخاص به وطريقته المقصورة عليه ، وقلبه الذي ظلّ موكولاً بشعره وصقله إلى أن جعله صالحاً لأن يصب فيه بدائع فنه وعجائب زخرفه البياني .

غير أن «ألفريد» في غمار مطالعاته الخاصة ، وفي مزدحم دراساته التي يتلقاها في الكلية ، لم يكن بالمخدوع الفكر المضيع لحس الباحث البصيرة ، وقد تباعدت رويداً تلك الفترات التي لا يبدو فيها إلا فتىً حالماً مستغرقاً في سكرة حلمه الرائع ، يجتلي مشاهده ويتجرع أفاويقه ، والواقع راح الفتى يعاير بأقيسة الشك والنقد كل ما تقع عليه عينه من قراءات ، وكل ما يصدم أذنه من مذاهب ونظريات . وقد قويت فيه نزعته الشاكة الناقدة ، إلى حد أن برز أثرها واضحاً في إنشائه وفي اجاباته على شتى اختباراته ويعزى ذلك الى ما تركته دروس الفلسفة والأخلاق من صدًى بعيد في نفسه ، كان له أعمق الأثر في غربلة آرائه ومعتقداته وزلزلة مقاييس نظراته التقليدية إلى الحياة والناس .

وهكذا عبر بزورق فكره القلق المتشكك ، خضم الفلسفة الرجراج اللجي ، من سبينوزا إلى ديكارت ، الى غيرهما من الفلاسفة المعاصرين له ، غير أنها كانت رحلة محفوفة بالشكوك حافلةً بالأشراك ، مزحومة الأفق بالعواصف والأنواء ، لم يرجع منها بسعادة الطمأنينة التي نشدها عقله ، وما عتم أن استنجد بخفقات قلبه وفيوض وجدانه يستلهم سناها اللألاء لينير له دياجي المشكلات وغوامض النزعات الفكرية التي لا تكاد تبدو له بين غبار الأدواء والحوافز المتلدة ، وهكذا لم يجد شاعرنا بُدّاً من أن يعتصم في آخرة أمره بإيمانه بالله ، مستلهماً وحي « اللانهاية » ، مستفتحاً أبواب نعيمها الروحي ، ففيها الخلاص من لوثات الشك والمطهر من وساوس الزيغ والضلالات

وقد تجلى ، فيما بعد ، هذا الاستسلام القلِق وذلك اليقين الدافق في كثير من خطراته :

عن مشكلات الحياة، وفلسفة الجمال، وإن لم يعدم الباحث المدقق وراء بعض الجمل والعبارات والتشبيهات مكامن خفية للشك تكاتف مرامي آرائه، وتسابق مطارح أفكاره!

— ١٧ —

هوايات الشاعر

وعندما أتمّ «ألفريد» دراسته بالكلية، ألفى أن جوّ الحياة العملية تشغله مهنتان تقليديتان، هما الطب والمحاماة. ولكنه لم يجد في قرارة نفسه ميلاً جديًّا الى أيّهما، وكان يكرّر هذا القول لكل من لامه واحتثّ عزيمته على معالجة واحدة منهما: «لن يستطاع الانتفاع بي قط في إحداها ولن أمارس مهنة منهما!». وهكذا انقطع عن مواصلة دروس الطب بعد أن واظب عليها فترة من الزمن.

وانتابته موجة من التبلبل والحيرة، أيّ المسالك يختطّ لنفسه وأيّ الطرق يسلك؟ وكاد يفقد الأمل في نفسه لولا تأكيد أستاذ الرسم له بأن في مكنته أن يصبح في يوم مّا رساماً عظيماً، لو أنه عكف على متابعة دراسته له وتمرسه بشتى فنونه، وهكذا اشتدّت هواية الرسم عنده وتمكنت ملكتها منه. ولم يمض طويل وقت حتى كان «موسيه» يرسم الصور المعروفة باسم «الكاريكاتير» بيد متمكنة وذوق فني سليم.

وفي ربيع عام ١٩٢٨ استأجرت العائلة داراً جميلة في أوتي « Auteuil » وهي ضاحية صغيرة هادئة من ضواحي باريس، وتمتاز بقربها من العاصمة الفرنسية. فكان «ألفريد» يرجع من معهد الرسم والتصوير ظهراً الى بيته ماراً في طريقه بغاب بولونيا، وفي يده ديوان الشاعر «أندريه كينيه « André Chénier » وكان شديد الاعجاب به، يخف أدبه على نفسه، ويخصّ آثاره بنصيب كاف من أوقات فراغه. ولم يكن أحبّ اليه، وهو يسير متباطئ الخطو، مرسل الطرف، مسرّح الخاطر، من أن يستظهر الكثير من أشعاره. وكانت تلك الفترة غنيّة بالعوامل النفسية والاجتماعية التي استثارت فيه شاعريته وحفزت كامن ميله الى نظم القريض، والواقع كما قال أخوه «بول»: إن الطريق بين رواية «ألفريد» لطرائف الشعر وبين نظمه لغرره ودرائمه، كان قصير المدى إلى حدّ يثير العجب والدهش!

وبالفعل أراق « ألفريد » ذوب مواجعه وخواطره وأحلامه في مقطوعة شعرية حزينة، تنبض بالأسى وتفيض بالشجن واللوعة ، ولشدّ ما أبهج فؤاده وأثلج صدره أنْ أتيحت له فرصة زيارة الشاعر الثائر الكبير « فيكتور هوجو » رأس الكتّاب الابداعيين في عصره.

كان الصراع على أشدّه بين أنصار « الكلاسيزم » ودعاة « الرومانتيزم » . وكانت حركة التصوير الرومانتي للحياة ، ثمرة من ثمرات الثورة الفرنسية الكبرى ، فاستحوذت الرومانتية على النفوس في مطالع القرن التاسع عشر ، وكانت هذه الروح كما قلنا مولعة بالغرائب ، موكلة بالأسرار. تستهويها عصور الغرائب والمعجزات والكرامات ، فلوّنت الأدب بنزعة الخيال العاطف وطبعته بطابع الاستهواء والصوفية ، وبكل ما يثير لواعج العواطف الانسانية ويبرزها في شتى حالاتها وصورها وشواغل أحلامها .

وفي دار فيكتور هوجو، لمس « ألفريد » الشاعر الناشىء أول جوّ أدبي لأعظم أندية العصر، فقد كان بيت عميد الأدب الفرنسي ، بمثابة منتدى لجمهرة من الأدباء يتطارحون فيه عيون النثر والشعر ، ويتناولون حركات الفكر وتيارات الثقافة بالنقد المرّ والتعليق الحرّ . وكان الجميع ، بطبيعة الحال ، أسبق في عالم التأليف شهرة وأرسخ في دنيا الأدب قدماً ، ومع كل فإن « ألفريد » لثقته واعتداده بنفسه لم يهله طول الشوط ولا راعته سعة الميدان، وأقدم على الانسجام في هذا الجوّ الأدبي الرفيع وكان جريئاً في إقدامه ، إلى حدّ شجعه بعد قليل على عقد أواصر الصداقات بينه وبين كثير من الشعراء والكتّاب ، فتعرّف إلى « بروسبير ميريميه P. Mérimée » و « سانت بيف » و « ألفريد دي فيني A. de Vigny » وغيرهم من أفذاذ الرومانتيزم . وقد أصابته عدوى هذا الجو الحماسيّ ، فسارع لهفان النفس إلى نظم الشعر وترجيع سجعات القصيد ، حتى صار وسواساً له وشاغلاً . وكانت ثاني مقطوعاته الشعرية قصيدة حزينة تحكي قصة عذراء إسبانية شاء لها غدار الجد أن يموت خطّابها واحداً في أثر الآخر ، فترملت وهي بعد كاعب في زهرة العمر وميعة الصبا . والواقع أن إنصراف « ألفريد » إلى استلهام نواحي المأساة في الحياة الانسانية طبع جانباً من قصائده بطابع الحزن الذي قارب أن يكون تشاؤماً ويأساً . ويقال أن « هوجو » كان له ، في بداية أمر الشاعر ، أثر المعلم الذي يصقل باللمسات الدقيقة نسيج الشعر ، ويحكم له التطابق بين مصاريع الأبيات.

وما لبث أن توسط أحد أصدقائه ويدعى « نوشيه » في نشر مقطوعة أخرى له باسم « الحلم » في مجلة تصدر ببلدة ديجون . وكان ذلك في اغسطس ١٨٢٨، وقد ذيل « ألفريد » المقطوعة بالأحرف الأولى من اسمه واحتفظ بالعدد الأول الذي ظهر فيه . وفي أصبوحة يوم من أيام عام ١٨٢٨، سارع « ألفريد » الى منزل « سانت بيف » وأيقظه من نومه، وصاح في وجهه صيحة الطفل الظافر ، والنشوة تهز جوانبه ، قائلاً : « وأنا أيضاً أنظم الشعر ! » وأتيح « لسانت بيف » أن يقرأ « لموسيه » بعض مقطوعاته الشعرية الحزينة التي توالت من يومئذٍ وتدافعت موجاتها عجلة بأحلامه وأمانيه ونشواته وأصداء نفسه القلقة الحائرة في بحثها الطويل عن العاطفة المشبوبة الخالدة .

ولم يسع « سانت بيف » إلا أن يشيد بمواهب هذا الشاعر الناشيء ، فالتقى يوماً بأصدقائه من زوار الندي وأنبأهم في لهجة الواثق المؤمن بما يقول : « إن بينكم طفلاً عبقريًّا » ، وسرعان ما التف حول « ألفريد » جمهور الحاضرين من الأدباء وأوسعوه تقريظاً وثناء ، وكالوا له آيات المديح ، بعد أن سمعوا شهادة عميد النقد في عصره ناضحة بالثناء عليه والتقدير له .

وفي ذلك الحين كان جسم « ألفريد » قد اكتمل نموه وبدت عوده واتخذ سمت الرجولة المُدلة بجمالها ورشاقة تكوينها ؛ وكان أنيق الهندام معنيًّا بانسجام زيه وسلامة مظهره ، والواقع كان « ألفريد » لايبدو دائماً إلا قشيب الثياب معطر الأردان مرجّل الشعر تياه المشية حالم النظرة . وكان قد تخلص من عادة الخوف والتهيب والوهم ، وأخذ من وقتئذٍ يعتاد ارتياد المسامر والملاهي وغشيان محافل السمر الليلي ومراقص الحانات والمطاعم ، وراح يسرف في إلتهام لذائذ الحياة العصرية ومسراتها المتعددة وألوان متاعها الناهك .

وبدأ يتعرّف الى النساء واحدة في أثر الاخرى ، فما تصافح وجوه مليحة من حسناوات العصر ويتعرّف اليها حتى يمل عشرتها ويوليها ظهره ! وما يأفل من أفق حياته كوكب حتى يبهره في سماء العشق لألاء كوكب جديد بازغ ، ولكن ثمة نساء قلائل كان لهنّ في حياته وإنتاجه أعمق الأثر .

كان يشغل وظيفة كتابية في شركة من شركات التدفئة ، توسط له فيها والداه ، وما كان دخله منها ليفي ، بطبيعة الحال ، بمطالب شاب متلاف ينسج على منوال أثرياء باريس وينهج

في الحياة نرجيم ، فلم يجد بدّاً ، وهو بعد لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، من أن ينزل الى جحيم المقامرة ليجرّب حظه فيها ، ويتعرّض بما قد يربحه مما ينفقه على مطالبه المتعددة. ولكن الخسارة ما كانت لتمهله طويلاً ، وعندئذٍ ينعي سوء بخته ، ويستبدل بثيابه القشيبة أخرى بالية ممزّقة ، ويقضي صدراً من الليل حبيس جدران البيت رهين حجرة من حجره القابضة الموحشة ! ولكن طبيعته العابثة المرحة لا تلبث أن تعاوده فيلين مزاجه ويعتدل طبعه ويرتدي أنفر ثيابه، وكان يؤثر الملابس المزخرفة المفوّفة على عادة الزي الشائع في ذلك العصر ، ويخرج ليقضي ليله حتى مطلع الفجر معربداً متسكعاً بين المراقص والمسارح والحانات ومسامر اللهو ومساوي المجون والعبث ، ملقياً دبر أذنيه بنصائح أمه رامياً عرض الحائط بزجرها وسخطها ، فلا جرم كانت تؤثر ابنها ويرل عليه ، وإن كان حبها القديم لشاها الاشقر الصغير ، الفريده ، لايلبث أن يطوّع قلبها الحنون له ، فتجيبه الى كثير من طلباته ، كأنها تعاود معه تدليل الطفولة وأغاني المهد ، ناسية أنه اليوم شاب تام العنفوان مكتمل الأشد !

— ٧ —

أول العهد بالانتاج الادبي

كان موسيه مولعاً بالقراءة منذ مطالع صباه الباكر ، وقد رأيناه فيما تقدّم من أخبار نشأته الاولى عاكفاً على قراءة القصص الخيالية الفنية بطرائف سورها ومعارض أحلامها وغرائب أبطالها . وقد نما فيه هذا الميل الفطري وتدرّج مع مراحل عمره ، ثم أخذ جادّاً في تنمية معارفه ومعلوماته عن الحياة والناس وأفانين المعقولات ، بالقراءة وباستيعاب ما يقرأ . ولما بدأ يندمج في أوساط الادباء ويغشى بيئات المثقفين من أفذاذ العصر وصفوة أعلامه ونوابغه، تطلع متفتح الجوارح متوثب الميول لعناق الشرق الى أن يأخذ من الحياة كما يأخذون ويداول الرأي مع أحداثها وجديد ما تطالعه به كما يداولون . ومن ثمّ تفتق في برج فكره الناجي عام ١٨٢٩ وهي أول سنواته الفنية بخواطرها وأحلامها ، قارناً لا ينفذ

له صبر ولا تهدأ له طلعة ، علاً ، إن تعوزه المنطق السديد مرّة لم يعوزه الشعور الصادق والحدس الصائب مرّات .

وبدأت تهبط إليه من سماوات مستوحاه الفكري الالهة الشعر « Lamuse » فكان يحسن لقاءها ويكرم وفادتها عليه ويأخذ عنها فنون البيان والحكمة يرفد بها حصائل فكره ومدخرات عقله الباطن . وألهمته الهة بدورها غرر الشعر وروائع القصيد وهدته الى الخفي الكامن من خفايا النفوس وخطرات الأوهام وخلجات العواطف . وراحت تنفث فيه من سحرها ما يسكر حسه ويؤجج لهيب قلبه ، ويصوّره في أوهام الناس شاعراً خيالي النظرة ، إلى الحياة والناس ، حالم المثالية ، وهائم المشاعر ، متقلب الأهواء والطباع !

وفي تلك الفترة الفنية بخيالاتها وتأملاتها ، جمع «ألفريد» من مقطوعاته الشعرية الكثيرة كتابه الذي سماه « قصص من اسبانيا وايطاليا » وأردفها بترجمة قصة عن الانكليزية بعنوان « آكل الأفيون » . ولم يكن مستغرباً أن تضيع ثماره العقلية الأولى وسط العواصف الداوية والتيارات العارمة التي كان يحدثها في محيط الأدب الجائش، أمثال« هوجو» و« بلزاك» و « سانت بيف » و « جوتيه » وأضرابهم من أفذاذ ذلك العصر .

عافت نفس الشاعر رتابة الوظيفة وتفاهة الأجر الذي يعطاه ، كما لم يلبه هوس المقامرة لجاعة ما تنطوي عليه من شعور بالكآبة والخيبة وسوء الطوية ، وهكذا ولّى وجهه شطر الانتاج الأدبي ، عاقداً العزم على صدق العمل ومواصلة الدأب ، معلّلاً النفس بالتفوق والسبق وذيوع الصيت واستفاضة الشهرة ، فهي الطريق السوي إلى اتساع نطاق دخله وانفتاح الأغلاق له عن كنوز الذهب النضار والنعم السابغة . ولا وجه للاستحالة في الأمر فهو يأتسي بالأفذاذ من معاصريه الذين جلب لهم انتاجهم ودأبهم الثراء العريض والجاه البعيد ، وفتح أمامهم أبواب المجتمعات الراقية والأوساط الرفيعة ، وجعلهم قبلة الأنظار ومهوى الأسماع ومهوى الأفئدة .

ولعلّ مما يدلك على صدق عزم الشاعر على بدء حياة خصبة منتجة يأخذ نفسه فيها بالأعنات واعتصار قوى الأعصاب واستجاشة ملكات الذهن ، ما يحكى عنه من أنه ذهب ذات يوم الى أحد الناشرين ، ويدعى مسيو « كانيل » ليطلب إليه طبع مجموعة من أقاصيصه

الشعرية في كتاب ، فلما أحصى الناشر عدد صفحاتها وقدر الحجم الذي تفرغ فيه بعد الطبع وجدها ما تزال في حاجة الى زيادة تضاف إليها لتستوفي الحجم المطلوب ، وما إن أبدى ملاحظته تلك الى الشاعر ، حتى استمهله الى موعد قريب ليوافيه بخمسمائة بيت من عيون شعره ، وما عتم أن استأذن « ألفريد » رؤساءه في أجازة قصيرة ونهض إلى بلدة « مانس » حيث عكف على النظم بحماس وحمية ، فما انقضى أجل الاجازة ، وكان عشرين يوماً ، حتى دفع إلى الناشر بأوراقه التي تضمنت ما ينيف على ستمائة بيت من الشعر المطبوع ، كمل بها الكتاب وأخرج لجمهور القراء في قطع وافٍ وحجم مقبول.

ولم تكن هذه العجلة المستكرهة ، على ما فيها من نصب وكد ، لتنأى بشاعرنا الموهوب عن إلهام الطبع وقواعد الصنعة ، واستيفاء شرائط النظم القيم البعيد عن التخليط والضعف والتهافت ، فهو في تعجله وتأنيه مطبوع موهوب ، يصدر عن فطرة سليمة وطبيعة غير كدرة ، لا تشيل به كفة ولا يخف له وزن !

وفي أول يوم ظهر فيه الكتاب أقنع والداه بأن يقيما له حفلاً بالبيت يدعو إليه زهرة شباب الادباء ، ممن تربطهم « بألفريد » أواصر المعرفة ، واستجاب الأب لطلب ابنه الاثير عنده وجاء في مقدمة المدعوين : « مريميه » و« دي فيني » و« لويس بيرانجيه » واستمعوا إلى الشاعر الشاب وهو يلقي عليهم في صوته الرقيق ونبراته الحنونة وتنغيماته الشاجية ، مجموعة من أبيات ديوانه ، ما إن رنت في آذانهم وتذوقتها حواسهم الادبية ، حتى استجادوها ونالت إعجابهم وإطراءهم ، واستنهضوا همة الشاعر ليوالي إنتاجه ويواصل العزف على مزهر الشعر الخافق ، يستلهمه روائع ألحانه ومعاوي نغمه . ومن يومئذٍ دبت به الرجل في وعور حياة التأليف والانتاج ، وتوالت أشعاره ، مقطوعات وأقاصيص تحكي نوازع نفسه وتصور مطارح فكره وتهجس بوساوس حسه ، وهو بين هذا وذاك يذوق حلاوة الفوز مرة ، ويتجرع غصص الإخفاق أخرى ، وتتوزع قلبه الرقيق بوارق الأمل في مستقبل باسم مرات .

وهفت نفسه الى معاودة حياة التمثيل التي علقها منذ صباه الأول ، فهو يود الآن أن يبدأ عتبتها كاتباً مؤلفاً ، لا زائراً متفرجاً ، وهكذا اتجه صوب المسرح ، وعزم جاداً أن يصوغ له قصصاً تمثيلية من معدن شعره ، ترد له غارب روحه ، وتخلع عليه سابغ مجده !

وكان أن نظم رواية شعرية باسم « مخالصة الشيطان La quittance du diable » كان يستعد لإخراجها على المسرح حين شبت ثورة يولية ١٨٣٠ فعوقت غرضه إلى أن هدأ ثائرها وعندئذ نشطت قرائح الكتّاب والمفكرين وغمرت الجميع موجة دافقة من الانتاج والتأليف. وكان لإحياء ذكرى نابليون ، بمناسبة عودة رفاته الى أرض الوطن ، نصيب ملحوظ في إذكاء حركة النظم والنثر ، وبعث رواقد الشعور الوطني في قلوب الجماهير .

وتعرّف « ألفريد » الى مدير مسرح «الأوديون» الذي طلب منه تقديم إحدى قطعه لتمثيلها على مسرحه ، فقدّم له «موسيه» مسرحية كان قد ألفها في تلك الآونة . وعنوانها « ليلة من ليالي البندقية» وقد مثلت على خشبة هذا المسرح في أول ديسمبر ١٨٣٠، ولكنها منيت بهزيمة نكراء ماحقة ، وتعالى صفير النظارة وضجيجهم وتصاعدت الصيحات الساخرة من وراء المقاعد والمقاصير . فكان لهذه النتيجة المشؤومة أسوأ أثر في نفسه ، حمله على تطليق المسرح وهجر التأليف له فترة من الزمن مكتفياً بنشر بعض الأقاصيص في مجلة « La Revue Fantastique » ولكنه ما لبث أن انقطع أيضاً عن نشرها ، وولى وجهه خالصاً صوب القريض ، يصوغ بأشطاره سلسلة نظيمة من أفكاره وأخيلته ، وينفض فيه ما يتقدح بين جوانحه من أشتات الأحاسيس .

وهكذا عجز « موسيه» الذي عرفناه ممثلاً مخيراً ناشطاً أن يكون في فترة من شبابه ويناعته مؤلفاً مسرحيّاً ناجحاً ! وفي تلك الفترة الجيّاشة بفنون إنتاجه الشعري ، كان «موسيه» يحيا حياة خليعة العذار، سادراً في غلوائه، مسيماً سرح اللهو في العابث الماجن من سلوياته ، معرضاً عن تلك النمائم المعوجة الفنة يتخمه بها ذووه تثيره وتبغضه أكثر مما ترضيه وتقنعه ! وكان يتخذ من « كافيه دي باري » الأنيقة مكاناً مختاراً يلتقي فيه بزملائه من الكتّاب والشعراء الابداعيين ، حيث يتواعدون على مواعيد التنزه والرحلات والولائم يتسمرونها بين أصابيحهم الباسمة ، وأماسيهم الزاهرة ، فهم جمع من الشبيبة العابثة المتغطرفة ، التي لا ترى الحياة إلا كأس لذة موصولة أو جام نشوة مسكرة الرحيق ! .

وما كان «موسيه» ليخرج من هذه الحياة المركولة أبداً باستجاشة رواقد الغريزة فيه ، خاني الوفاض من التجارب ، صفراً مما ينمي فيه مواهب الذهن ويؤكد عنده أصالة النشء التي

مت به وشيكاً الى الذروة من عبقرية الشعر ، بل أوقدت له هـذه الحياة النابضة أنباساً متلألئة من وهجها، وكست إنتاجه مسحة من الطرافة المستعذبة والمثالية المحلقة ، التي تعكس لقارىء شعره في الحين بعد الحين، بوارق من حياة الشاعر التي عاشها وذاق حلوها وبلا مرّها، وجاز بالمفاوز الداجية من ظلماتها ، وحلـق في السامق البعيـد من آفاق ضيائها .

وفي أواخر عام ١٨٣٢ ظهر له كتاب آخر باسم « Spectacle d'un fauteuil » قابله النقّـاد بعاصفة داوية من الدهش والاعجاب ، حتى لقد همس « ميريميه» في أذنه قائلاً له « إنك تقدّمت يا صاحبي تقدّماً عظيماً» ، أما« سانت بيف» شيخ نقادة عصره فقد كتب في عدد « مجلة العالمين » الصادر من ١٥ يناير ١٨٢٣ ؛ ما نصه « هذه أبيات عاطفية رقيقة لم ينسج على منوالها ، بل لم ينظم مثلها كثيرون ممن اتخذوا في الاكاديمية أماكنهم بين صفوف « الخالدين » ، وإني أتحدّى كائناً من كان أن يأتي بمثلها أو بصورة منها ! »

ومع ذلك لم يعدم«موسيه»من حساده من أثار عليه ثائرة فريق آخر من النقّـاد الناقمين فاتهموه بأنه شاعر غير مبتكر ، لا يتقن غير التقليد الآلي المقيت ، وانه ظل ممسوخ للشاعر الانكليزي الكبير« لورد بايرون» ، كما انه اناء أصم لأشعار معاصره «فيكتور هوجو» ، وكل إناء ينضح بما فيه !؟

والواقع أن « موسيه » لم يكن ظلاً« لبايرون» أو تبيعاً مسيراً يتأثر طريقته ويحتذي حذوه بل كان يتلاقى وإياه في رحاب العاطفة الرقيقة والحساسية الروحية وفي مسارعته الى تقديم عذابات الجسد والنفس قرباناً مبذولاً على مذبح الحب والألم.

كذلك كانت علاقته بـ« هوجو » لا تعدو الاعجاب والمصاحبة، ورغم أن فترة اتصال«موسيه» بعميد الادب الفرنسي دامت ثلاث سنوات ؛ الاّ أن القارىء لشعر موسيه لا يكتشف منه لمحة واحدة تدل على انسكاب روح صاحبه في روحه هو . ويا ليت شعري ماحاجته الى اقتباس المدد والذخيرة ، وفي أعماقه الثائرة نفاثات وجد مكتوم وتباريح صبابة لاعجة وأفاويق عطف غامر ، فيها جميعاً لفيض قريحته الموهوبة وإلهام قلبه الخافق غناء ومقنع ! . ومن يومئذ تكاملت عدد إنتاجه واستوفى حظه من التمام والاحكام ، وتراحبت آفاق نظره في غياهب النفس وخبايا القلوب ، واستشف من صميم الحياة الانسانية جوانبها الشاحبة، وعرض

على الأنظار ما سيها المروعة ، سالكاً صوره ومشاهده وتجاربه في سلسلة نظيمة من الشعر العذب المنون ، تترقرق فيه التلاحين الساحرة المرنّة .

وتعاقد معه المسيو « فرانسوا بيلوز F. Buloz » صاحب « مجلة العالمين — La Revue de deux Mondes » ليوالي الكتابة في صحيفته ، وكانت ملتقى للاقلام الخثارة ، وميداناً تتصاول فيه قرائح الابداعيين في ذلك العصر ، فطار بها صيته وعلا نجمه واشرأبت اليه أنظار حسّاده تلاحقه بحمم كيدها المستعر وترميه بشواظ حفيظتها الفائرة ، محاولين تخذيله وتثبيطه ، ولكن كان له من صدق عزمه ومضاء نيته ومعاونة « فرانسوا بيلوز » واخوانه له ما جعله يوقن بأنه لن يحيد منصرفاً عن الغاية التي نشد ، والنهج الذي نهج .

— ٨ —

جنة الحب وجحيمه

قضى « موسيه » ردحاً طويلاً من شبابه مطلقاً العنان لغرائزه ، يلهو ويمرح مع نساء عابثات مستهترات ، أمتعنه بكل ما في الحياة من ملاذ حسية وضيعة ، سرعان ما تتبدّد وتخالف القلب البشري في عزلته الأبدية ، يجد في البحث عن نعيم الحب وسعادة الهوى .

كان شاعرنا رجلاً حاد المزاج سريع التحول متوثب الأعصاب ، خيالي النظرة إلى المرأة والحياة ، والواقع ان إمعانه في مخالطة أولئك النسوة زاده رغبة في المرأة الكاملة المنشودة التي كان خيالها يطوف بذهنه ويحتل عقله ويعكر عليه صفو لياليه ويبتليه بضرب من الحزن العميق الممزوج بالضجر والتبرم والحسرة

كان يخشى أن يموت قبل أن يعرف الحب ، وكان يخاف أن يصرعه القدر وهو لم يعرف غير اللذة العادرة التي تزول بزوال الساعة ، وكان شعره في تلك الفترة من حياته رجع صدى نفسه القلقة الحائرة في بحثها الطويل عن العاطفة المشبوبة الخالدة .

وفي تلك الحالة النفسية المقلقة ، وفي فترة كاد فيها قلبه يجدب ، ومعين نفسه يجف ، تعرّف « موسيه » إلى الكاتبة الروائية الملهمة « جورج صاند » وتعرّفت هذه اليه ، وتلاقت نظرتاهما

وخفق قلبان ، فتحابا وتساما الود ، وتعاهدا في منسك الحب أن يكونا لعهد الهوى أوفياء ولموثقه مخلصين . وكانت « جورج صاند» امرأة ناضجة الأنوثة وافرة قوى العقل مضطرمة الحواس جيدة الأعصاب حديدية الارادة ، عاشت وأحبت واختبرت الرجال وعرفت منهم عدداً كبيراً من صفوة عظماء عصرها ونخبة أفذاذه ونوابغه .

واليك قصة هذا التعارف في ايجاز :

دعا المسيو « فرانسوا بيلوز» معاونيه البارزين في تحرير «مجلة العالمين» الى حفلة عشاء شائقة أقامها بمقهى لوانتيه ، تكريماً لهم ، وكان من بين المدعوين بطبيعة الحال ، الشاعر الشاب « ألفريد دي موسيه » الذي جاء بمقعده مجاوراً لمقعد سيدة صبيحة الوجه دقيقة الملامح حلوة الحديث ، تسمي نفسها بذلك الاسم الذي عرفت به في عالم الأدب « جورج صاند » . وقد تجاذب الأديبان أطراف حديث ودّي ما انتهيا منه حتى كان كل منهما متعلقاً بصاحبه مؤثراً له ، راغباً في المزيد من عطفه وحبه وايثاره . فمن ترى هذه السيدة التي أحدثت من بعد ، في حياة « موسيه» أكبر انقلاب طاغ تغلغل في الصميم من قلبه ونضح على صفحات شعره ونثره ؟ .

كانت «أمادين أورور لوسيل دوبان» ، أو مدام « ديدوفان» ، تكبر « ألفريد » بست سنوات وستة أشهر. وهي ابنة« موريس دوبان ابن مدام دوبان دي فرانكاي»، الابنة غير الشرعية لمارشال « موريس دي ساكس» ، بطل موقعة فونتينوا ، وكان بدوره إبناً غير شرعي لأحد ملوك بولونيا .

كانت والدة «أمادين» تعمل كمساعدة صغيرة في محل لحياكة الملابس حينما شبت الحروب النابليونية ، فاصطحبها أحد الضباط معه في حملة ايطاليا وعبرت مع الجيش جبال الألب ، وثمّ تعرفت الى «موريس دوبان» فتزوجت به وهجرت صاحبها الضابط، وجاء الزوجان معاً إلى باريس ورزقت الأم بابنتها « أورور » ومات الوالد في عنفوان شبابه ، والابنة ما تزال طفلة فحملتها أمها الى نوهان حيث تقيم جدة «اورور » ولما كانت المرأتان على خلاف دائم ، تركت الأم إبنتها في كفالة جدتها ، وهجرت « نوهان « Nohant » شاخصة الى باريس لتقيم فيها .

وقد عنيت الجدة بتثقيف حفيدتها « اورور » فأدخلتها أحد أديرة باريس حيث قضت

عدة سنوات تتلق علومها ، ولما قفلت راجعة الى نوهان عكفت على قراءة مؤلفات فولتير وروسو ، واتخذت لنفسها ثياب الغلمان ، تغدو بها وتروح بين المنزل وانحاء البلدة ، مثيرة بهذا الزي دهشة القرويين وعجب الفضوليين من أهل الناحية . ولما توفيت جدتها ، هجرت بدورها البلدة ورحلت الى باريس لتقيم مع أمها ، وهناك اشترت كرامتها وحريتها بل وضمنت مستقبلها ، كما كانت تظن ، بزواجها من «البارون كازيمير ديدوفان» ومن ثمّ عادا إلى نوهان ليعيشا معاً فيها .

ورزقت أورور من زوجها البارون بابنة وابن ، ولكن لم تذق طعماً للسعادة التي تخيلتها في جواره فقد كان رجلاً فظّاً غليظ القلب لا خلاق له ولا وازع من ضمير أو ثقافة ، فهو أقرب الى الجلافة والوحشية لا يهزه شعور من نبل أو عاطفة من رحمة ، متجهم صفحة الوجه مبتسر الاسارير دائم التعبيس ، وبالجملة يدل مظهره على غيرسوء وشراسة طبع وشذوذ خلقة . ولما ضاقت به ذرعاً أرادت أن تروّح عن أعصابها المكدودة ، فرحلت الى كوترية Cauterets بجبال البرانس ، وهناك التقت بمحام من بوردو يدعى أورليان دي سيز ، فهام بها وهامت به ، وتبادلا حبّاً مبرحاً دام الى سنوات ، حتى شك أخف نقادها وطأة عليها في طبيعة هذا الحب وحقيقته ، وتمنوا أن يكون من النوع الأفلاطوني الخيالي ، الذي تموت فيه نزوات الجسم وتحيا به روحانيّة القلب ! وعلى كل فقد أيقنت في غمرة من يأسها أن الحياة مع البارون فوق طاقتها ووراء مقدورها فما عتمت أن هجرت بيتها وزوجها وأولادها وشخصت إلى باريس لتحيا حياة الأدباء وتنهج نهج الطليين الأحرار من مكان مدينة النور :

والواقع كانت أورور امرأة موهوبة الذهن دقيقة الحسّ متقدة الخيال ، حصلت جانباً كبيراً من ثقافة العصر ومعارفه . وقد اعتمدت على ارادتها الحديدية وعلى ما تحسه في نفسها من مواهب جائشة ، لتبدأ صفحة جديدة من حياتها ، وهكذا أخذت معها إلى باريس الطموح يعتمل بين جوانحها والأحلام العريضة في مستقبل باسم تداعب حياتها وتهز أفكارها ومشاعرها .

وفي طريق الدنو تعرّفت الى «جول ساندو» وهو شاب من فقراء الأدباء الذين خلا جيبهم من الدرهم والدانق ، وحفر البؤس على وجوههم صورته ، وضاقت أمامهم الحياة إلاّ

من فسحة الأمل . وفي باريس عاشا معاً ، مدة قصيرة من الزمن ، خالصين للادب ، فارغين للقراءة . ومن الأحرف الأولى لاسم صاحبها اشتقت لنفسها اسم « جورج ساند » الذي حملته بقية أيام حياتها واشتهرت به في دنيا التأليف والكتابة .

كانت « جورج ساند » في تلك الفترة قد أوفت على الثلاثين من عمرها ، وكانت تحيا ، بعد انفصالها عن « ساندو » ، وحيدة في بيتها ، تقتل فراغ الوقت بما لا تني تسوّده من الصفحات بالكتابة . كانت تشعر بالوحشة القابضة فتحنّ بطبيعة الأنثى الى الرفيق أو العشيق ، إلى من يستجيب لغريزتها المشبوبة وعواطفها المتوهجة بسعار الجنس ، إلى من تلقي بين أحضانه هذا الجسد الشهيّ المبتل الذى استتم يناعة الشباب وعنفوانه .

وكان اسمها قد بزغ في عالم الأدب عقب نشرها لقصتيها « إنديانا » « وليليا » فتقرّب الكتّاب والأدباء إليها ، كل يودّ أن يحظى بصحبتها ، إن لم يفز بحبها وقلبها .

بدأت « عيريه » ولكنها وهي الهوائية المتقلبة ، ضاقت به ذرعاً بعد أسبوع ، فهجرته في طلب غيره ! وأسرّت الى صديقها « سانت بيف » بحاجتها الى الأنيس والسمير الذي يخفف خلاطه على نفسها وتلتقي به أوام روحها ، فعرض عليها أن يعرّفها بصديقه « موسيه » ولكنها أبت ، لما كانت تسمعه عنه من سرعة تقلبه وكثرة تشرده بين الحانات والمراقص ، وطلبت اليه أن يحضر لها « اسكندر دوماس »[1] ولكن الطبعين ما كانا ليأتلفا أو يلتحما في مشرب أو ذوق أو ميل ، فبرمت به هو الآخر ، وقلبت له ظهر المجن ، وكتبت الى « سانت بيف » تقول إنها في حاجة الى من يشعرها بالحنان والعطف ؛ في حاجة الى حب جديد تنفس به عن المكبوت المكظوم في سويدائها .

وفي تلك الحالة النفسية القلقة ، التقت « بموسيه » في حفلة مقهى لوا نتيه واستهلت معه صفحة عشق جديدة ! . ورجع « موسيه » بعد الحفلة الى بيته مشدوه الرأس واجب القلب منتفض الجوارح ، لقد أقامت هذه المرأة قيامته . نعم ، انه يشعر بأن حلمه قد تحقق ، وأن المرأة المنشودة الجامعة الى فتنة البدن جمال العقل والروح ، أصبحت له وحده ، فهو مستطيع أن يستلهمها أروع القصص وأبدع الاشعار ، وأن يذوق وإياها كأس السعادة صفواً غير

(١) هو الكاتب الروائي الكبير اسكندر دوماس الاب

مُـزاق، وأن يعتصرا معاً ما في الحياة من متع ولذاذات . وأقبل على كتبها يقرأها من جديد، فهو يستخرج اليوم من بين سطورها خبيئها الذي غمّ عليه فهمه من قبل، انه يقرأ فيها ببصيرة وضيئة حبيبته وملهمته، بل يراها سافرة أمام عينيه، لا تحجبها عنه الصيغ والتراكيب والاشارات، فما أسعده بها وأسعدها به، وحرام أن يظل عمره بعد الآن نهباً موزعاً بين الأوهام والخيالات.

وخطا في الحب خطوته الثانية، فرسم حبيبته بيد الفنان الحاذق المدنف في أوضاع تخطيطية جميلة، تأخذ العين بطرافتها المستملحة وبساطتها المستعذبة. فهي فيها جميلة كما في لوحة الرسام « دلاكرواة »، ذات عينين سوداوين وسيعتين، تلحظ فيهما العمق والجاذبية، يزينهما حاجبان رهيفان رسمت استدارتهما يد مزخرفة مبدعة، أما الانف فرفيع أقنى، شمخ به قليلاً ثم دقيق في وسطه زاده جمالاً وفتنة. والفم صغير منفعل الحنايا امتلأت شفته العليا قليلا لتجتذب الأخرى في شبه ابتسامة حالمة. والوجنتان نضاحتان بالحيوية. والجبهة ترتفع قليلاً لتنتهي استدارتها عند شعر أثيث وحف بلون الفلقة الحالكة، انسدل على صفحتي الوجه وتدلّت ذوائبه الى الكتفين طليقة مرسلة.

وامتزجت الروحان وانسجم الذوقان وشغف كل منهما صاحبه هياماً وحبّاً وأولاه إيثاراً وقرباً. نعمت بحنانه وعطفه ونعم بأنسها اليه وتقربها منه، وازدهاه تفانؤها في مطاوعته واستماتتها في إرضائه، وهكذا وجدت « جورج ساند » في هذا الحب الوليد، وهي العاطفية بفطرتها الحالمة بمزاجها وسليقتها، ما تفرج به عن المحتجز المكظوم من فيوض أحاسيسها وشجونها وما تهدىء به سورة الهائجات الحرار من آلامها وأوجالها!

كان هذا الحب تجربة من تجارب الحياة التي عرضت « لموسيه » وكشفت له من بعد، عن جوانب خفية من حياة النساء. وكان كذلك لوناً جديداً من الحياة تحياه الكاتبة بوجدانها وشعورها، مما أكد لنا أن تجاربها الماضية لم تكن سوى صدى لأهوائها القلقة المتقلبة. إنه حب أكيد عميق، يصدر عن قلبها الحائر الصديان، ذلك القلب الذي شقي طويلاً في بحثه عن قدس العاطفة ونعيمها. كيف لا، وهي تكتب الى أستاذها ونجي سرها « سانت بيف » فتقول مؤكدة : « إني اليوم أحب، وإني لاقرر لك ذلك وأنا جادة صادقة. أحب

جورج ساند

من صورة زيتية بريشة المصور دولاكروا محفوظة بمتحف اللوفر بباريس

«ألفريد دي موسيه» ، وليس حبي له نزوة من النزوات العارضة ، ولكنه رباط وثيق بين قلبينا بل اتحدت به روحانا » .

ولازم «موسيه» بيت حبيبته بشارع «الكاي ملكاي» . وكانت تقيم مع «جورج ساند» ابنتها الجميلة «سولانج» التي لم تكن وقتئذ تتجاوز الرابعة من عمرها، وكان يقيم معهما الوصي «بوكوران » ، وعاش الجميع هانئين ناعمين بصحبة بعضهم بعضاً ، يقطعون أماسيهم الجميلة بالموسيقى والقراءة ومجاذبة أطراف الأحاديث مع من يزور البيت من معارف وخلان .

أما «ألفريد» فكان يوزع وقته بين الموسيقى وبين ما يرسمه من صور «الكاريكاتور» بفاتنته في مختلف أوضاعها ، وشتى حركاتها وسكناتها ، بيد أن جو العاصمة لم يلبث أن ثقلت وطأته عليهما ، فذهبا الى فونتنبلو في رحلة جميلة هي أشبه بإجازة شهر العسل ، حيث اختليا لحبهما فترة قصيرة من الزمن ، بعيدين عن أعين الرقباء وتثقيل المتقلين من الزوار وأهل الفضول .

وبغتهما طارق من الخوف على حين غرة ، فخشيا لفرط إحساسهما بالسعادة أن تحقق التجربة وتنطفأ جذوة الحب في قلبيهما . فلا تعود تقبسهما حرارة التدله ووقدة الشعور بفناء المحب في شخص محبوبه ، أو تعجز عن أن تدفيء جوانحهما المقرورة بإحساسات العاطفة الفياضة المضطرمة وإلهامات الوجد اللاعج الزخار !

وهكذا انتابتهما الوساوس والأوهام وألحت عليهما الخيالات السوداء ، تنذرهما بأن الأعين الحاسدة ترصد نعم هذا الحب وأطايبه ، وتمد عليهما الحركات والسكنات، وتود لهما مرارة الغصص والآلام ، وتتمنى لهما عاجل الفرقة وفادح الخذلان ! .

أرادا أن يفرا بكنزهما إلى أنأى مكان لينعما فيه بالوحدة والعزلة ، ويتساقيا كؤوس الهوى والأحلام مليئة مترعة . ثم أرادت «جورج ساند» ألا ينازعها في حبيبها إنسان وأراد «موسيه» أن يباعد بينها وبين مفاتن باريس، وأن ينتزعها من أيدي المعجبين بها، وأن يخلص في العزلة إلى حبه ويتطهر من شوائب الغيرة ولوثات الشك فاتفقا على ترك العاصمة والسفر الى البندقية ، مدينة الهوى والحلم .

ولكن ما سبيله الى الفوز بموافقة والدته على هذه الرحلة المفاجئة وهي التي لا تطيق

فراقه ساعات ، وتخشى عليه خشية الأم على طفلها الرضيع ! لقد تكفلت الحبيبة بأن تذلل له كل عقبة ، وأن تنتزع من والدته ، وهي السيدة الرقيقة الشفيقة ، رضاها وموافقتها بل ودعاءها الطيب المبرور .

وهكذا تحقق « لجورج ساند » ما أرادته ، فنالت ثقة الأم وموافقتها وحزم العاشقان ما لهما من متاع وبدءا رحلتهما الطويلة إلى جنة النعيم الموعود .

— ٩ —

مدينة الهوى والحلم

كان وداع الأم لابنها بالغاً مؤثراً فقد شيعته بطرف باكٍ وعين دامعة وإن خفف عنها بعض ما تجده في قلبها لهذا الفراق الموقوت ، وعد ابنها لها بأنه سيراسلها على فترات متقاربة ليهدأ خاطرها ويطمئن بالها عليه ، ما غاب عنها في رحلته تلك .

وخلف العاشقان باريس في أمسية غائمة متجهمة ، تزاحمت سحبها وتكاثف ضبابها ولكن عربة البريد أوصلتهما سالمين إلى ليون ، ومن هناك عبرا الرون في سفينة نهرية منحدرين إلى مرسيليا . وكانت الرحلة النهرية ممتعة ومروحة ، التقيا فيها ببعض الأدباء من أهل الظرف والفكاهة ، تقطعا معهم بالأحاديث الفكرية والمنادرات المرحة المسافة إلى ذلك الميناء ، ومن ثم أقلتهما سفينة إلى جنوا . وأصيب « موسيه » بدوار البحر ، على حين لم تشعر « جورج ساند » في بادىء الأمر بأنها تعب من طول الرحلة ، فكانت تتخذ مجلسها على ظهر المركب ، مدخنة سيجارها ، مسرحة طرفها في عرض البحر كأنما تستلهم زواخر أمواجه الخيال والشاعرية .

وفي جنوا روح « موسيه » عن جسمه المكدود بما شاهده واجتلاه في المدينة من الحدائق المونقة وبساتين الثمار اليانعة ومناظر المروج البديعة ومتاحف الصور والرسوم ، ثم أخذا سمتهما إلى « فلورنسا » حيث درس الشاعر بعض محلاتها التاريخية ، وطوف مع حبيبته في كثير من نواحيها وأماكنها التاريخية ، مشاهداً مستطلعاً منقباً ، كأنما يتهيأ لكتابة

مأساة شاجية لحقبة من حقب التاريخ الانساني الحافلة . وبعد أن أشبعا طلعتهما من هذه المشاهد الرائعة ، تقارعا على قطعة من النقود أيّ المدينتين يقصدان : روما أم البندقية ؟ وقررت القطعة مصير الرحلة ، وهكذا ألقيا عصا التسيار بالبندقية ، مدينة الهوى والخيال والحلم .

وصلاها ليلاً ، وقد وجداها عن بعد مزحومة الأفق بما يشبه الضباب ، متدفقة من الزمهرير ، كابية حالكة . وكانت «جورج صاند» قد فتر نشاطها وتراخت أعصابها وشحبت ريقها ، إذ هدّها الاعياء أخيراً من مشاق الرحلة ووعثاء السفر ، فلما استشرفت لمعالم المدينة في تلك الليلة الموحشة ، خالتها الكفن أعدّ لها ولحبيبها في خاتمة مطافهما ، لتطوي فيه آمالها وأحلامهما !

وركبا الجندول ، أعجوبة المدينة وزورقها التقليدي الحالم ، ماخرين به القنال الكبير الى الفندق ، وحسر «ألفريد» ستائره الحريرية الهفهافة ، فطالعتهما أضواء الثريات والشموع منبعثة من نوافذ القصور والمباني ، وهي تحاول عبثاً أن تبدد غياهب الظلمة الخبيثة ، ثم انحدر بهما الجندول الى نهر « ديليشيا فوني » حيث يقوم بناء الفندق الضخم بشرفاته المطلة على المياه الباهتة المرتعشة ، وهنالك حطا رحالهما وشغلا فيه بضع غرف تتوسطها قاعة تطلّ نوافذها على صفحة الماء الرجراجة المازجة التي تعكس الرائين أشباح المغاني والقصور وهي تميد وتتراقص مختلطة بأضواء الشموع والثريات الكثيرة المتلألئة .

سرّ الشاعر وملأت الفرحة جوانحه ، فقد انغمر بمشاعره وبكل نابضة من حسه في هذا الجو الشاعري الهامس بشوامخه التاريخية وطرفه الأثرية ومشاهد جماله الباهت .

وأخذ من نفسه كل مأخذ منظر هذا الفندق العتيق وقد ناء بعبء السنين وتوالي دوراتها عليه فعكس على صفحة الجندول الكبير شبحاً غريباً متجهماً ، تجوز به زوارق الجندول متهادية في غدوها ورواحها وقد ارتسمت على سقائفها وجنباتها ظلال غامضة مرتعشة من رسومه وجدرانه . حقاً إنها في نظره روائع تصور لفكره الشاعري مدينة من مدن الخيال والسحر !

أما الحبيبة الموموقة ، فأما استشعر الضيق والبرم ، فقد نفدت بها حركة الاعياء ، وثقل

يهضتها التهافت والمرض ، وذهب بمرحها الدائم وإشراقها الفاتن وعكة عصبية مباغتة لم تملك لها دفعاً ، وودت وهي في حالتها تلك أن تظفر من حبيبها بكلمة عطف مشجعة أو إشارة غزل مسرية . انتظرت المسكينة أن يناقلها ، كعهدها به ، أحاديث الهوى والصبابة ، أن يغمرها بمداعبته وتدليله ويحيطها بحنانه وعطفه ، ولكن هيهات ! .

لقد جبَّهها وهو متجهم صفحة الوجه عابس الأسارير بمقالة من ضاق بصاحبه ذرعاً وارتد لرقته مغيظاً منه حنقاً : «إن من المؤلم حقاً أن يعكر المرء صفو مزاجه برفقة امرأة مريضة متعبة ! » .

ونفذت الكلمة كطعنة الخنجر المسموم إلى الصميم من قلبها ، ولكنها لم تشأ التعقيب على كلمته الطائشة ، فما نبست ببنت شفة ، وتظاهرت بأنها عدت على الأمر في غير احتفال ، ودخلت مخدع نومها ، وجلست الى منضدتها الصغيرة ، وراحت تنفث على الصفحات البيضاء ما يلعج قلبها من سخط ونقمة وما يؤجج بين جوانحها من وقدة الغضب ولذعة الحسرة .. وصر اليراع بمروره المتدافع في تلك اليد الرخصة الناعمة ، ذات الأصابع المطواعة اللينة ، المشابهة في لينها لمادة الهلام [1]

كان أمامها عمل كثير مرهق وجهاد طويل الشقة ممدود مراحل البعد وما أزمعت القيام برحلتها تلك الا لتخلص وحبيبها الى مكان ناءٍ قصي ، يتفرغان فيه لحبهما وعملهما ويبدءان منه حياة إنتاج خصيبة حافلة تحقق لهما ما يبغيان من مجد وشهرة وتنقش اسمهما معاً لامعاً متوهجاً في سجل الحب والخلود .

كانت موارد دخلها في تلك الفترة مقصورة على مصـدرين ، هما مؤلفاتها التي تنشرها ومقالاتها التي تراسل بها « مجلة العالمين » ومقدار نشاطها في الانتاج وكدّ ذوي القريحة تكون سمة الدخل ووفرة الرزق ورغد العيش . انصرفت الكاتبة جادّة الى العمل مستغرقة قواها وملكاتها في التأليف والكتابة ، شاغلة أوقات فراغها بالنافع المجـدي من القراءات والمشاهدات ، مؤثرة حياة البيت الهادئة على حيـاة التشرد بين مساهر الليل ومراتع اللهو والمجانة ، على حين انطلق صاحبها في لجنة المنهوم يقتطف لذائذ الشباب لذة في أثر الأخرى ،

(١) هذا الوصف لاسكندر دوماس الابن .

وعضي في المدينة متفتح الجوارح الى مرائع الأنس وملاعب الهوى والفنون تفيها مستراده ومراحه ، بل فيها شبع حسه ، ومنطلق خياله وشعره ! .

***

كان يقضي نهاره وليله متجولاً في شوارع المدينـة ، ماخراً بزوارق الجندول ترعها وقنواتهـا ، معرجاً على مكامن الخلان والعشاق ومغاني المجون والخلاعة ، متجولاً وسط المباني الأثرية ، مستطلعاً أسرار المعالم التاريخية التي تمتلىء بها المدينة منذ أزهى عصورها وأحفلها بالأمجاد والمفاخر . إنه مبهور مسحور ، لا ترتوي له غلة ولا تشبع له غرثة ، محموم الفكر مأخوذ المشاعر . لقد وجد لشاعريته في مدينة الهوى والأحلام ثقافها وصقالها ، بل وحيها وإلهامها ، فهو يصفيها إعجابه ووده ، ويحبس عليها قلبه وحبه ، ويشعر وهو في غمرة الحلم والنشوة ، أنه شاعرها الناطق المبدع ، وقيثارها الصادح المطرب ! .

فلا عليه إذا اعتنق اليوم بين ذراعيه أناسها وأهلها جميعاً ، ولا عجب إذا وسع قلبـه الرقيق صداقات الكثيرين من أبنائها وبناتها ، من العلية والصفوة الى العامة والدهماء ، فهو انسانيّ في قرارته ونزعته ، وشعبيّ في عطفه ومحبته وأن الجميع لاخوانه وخلانه ، بل أهله وأقرباؤه ، وان لهم عليه لولاءً وقربى وإن لهم عنده نسباً ورحماً ! . وبالجملة كان الشاعر يحب الناس على حين كانت « جورج ساند » تكرههم ، وكان مولعاً بالحياة في المجتمعات ، بعكس حبيبته التي كانت تهوى التأمل والعزلة .

لقد استصحب الشاعر الكسل واستنام الى سكرة الحياة العابثة اللاهية ، فهو يقضي صحابة نهاره متنزهاً في القوارب ، فاذا ما خرجت الحبيبة بعد عمل اليوم الشاق لتبحث عن حبيبها التقت به في الحانات سكران معربداً ! .

إنه يعيش في الخارج أيامه ، لا يفهم معنى لنظام والدعة ، ولا يستسيغ إستقرار الحياة البيتية وسلامها ، فهمه الأول أن يتجول في أنحاء المدينة ويغشى أحياءها الشعبية ، مصطحباً في جولاته رهطاً من البحارة وفئة مختارة من بنات الهوى ! .

لم يقف أمر الشاعر عند هذا الحد ، بل كان في طبيعته طيش ونزق ، يعد بشيء ثم ينسى فيخلف الوعد ، يقتنع بفكرة ثم يتأثر بنقيضها فجأة وبغير سبب ، يهتم بشخص ثم يعرض

عنه بغتة ومن غير أدب ، يظهر إعجابه بصبيته ثم يطري أمامها عامس من صادف في المدينة من فتيات وغانيات ! :

وهنا ضاقت المرأة به ذرعاً ، وبرمت بطباعه وأخلاقه وثقلت عليها وطأة حبه ، وكرهت لنفسها أن تستعبدها العاطفة لمن هو أضعف منها شخصية وأهون ارادة وأقلُّ عزماً وهكذا بدأت عوامل الصراع الخفيف بين رجولة «جورج ساند» وأنوثة «ألفريد دي موسيه» وهي عوامل أسفرت من بعد عن تمزق فؤاد الشاعر وانهيار حبه وخيبة أمله وتقوّض الصرح الذي شاده بعقله ودمه.

أخرجها السخط عن طبيعتها ، وهي المرأة الحالمة المرهفة ، ونال من كبريائها هذا السرف المنهوم في ارتشاف أفانين المتع ، واستثار عزتها المجروحة غرور الشاعر ورعونته واستهتاره ، فأطلقتها في وجهه صيحة عاصفة مدوية ، عقب شجار عنيف شبَّ بالفندق : « إننا لا نحب بعضنا بعضاً ، فقد انقضى ما بيننا ولن يخفق قلبانا بعد اليوم ، فما عرفنا الحب من قبل ولا مستنا سواس من لواعجه وتباريحه ! »

لقد طار العصفور من قفصه ، وما كانت هذه الكلمات اللاذعة ، الثائرة بحرارة الغضب وسعير السخط إلاَّ فصل الخطاب في مصير هذا الحب الوليد ، إنها فاتحة الثورة على الميثاق المبروم والعهد المقطوع ، بل هي جواز العبور إلى منطقة كانت من قبل عليها حراماً ، فهي مستطيعة أن تحيا فيها اليوم متحررة من التزامات العهد ، بريئة من موثقه ، فما عاد العهد عندها مسئولا ! . إنه تقليد جرى عليه عشاق باريس في ذلك العصر وسُنَّة متبعة بينهم اتخذوها لهم في دنيا الحب شرعة ومنهاجاً ! .

وكأنما هيأت لها الأقدار في تلك الفترة الدقيقة التي انقبضت فيها عن صاحبها «موسيه» وانطوت محصورة على مضامين نفسها تبكي حبها وتندب حظها ، رجل الأحلام المنشود ، ليهب لها شطرها المفقود الذي تستتم به هناءة النفس وسعادة الروح .

وتفصيل الأمر ، أنها كانت جالسة بشرفة الفندق ذات يوم صفا أديمه ورقَّ نسيمه حتى ألمس أنفاسه البليلة ربوع المدينة ومغانيها ، وكانت مرتدية ثوباً حاكى في تفصيله زي الرجال ، وقد علت جبينه بنية منشاة ناصعة البياض ، وزانتها ربطة عنق عريضة ، كتلك التي

يزين بها الرجال أعناقهم . وكانت في تلك اللحظة تدخن سيجارها الكبير وتتابع بفكرها ولحظها حلقات الدخان المنفرثة في الهواء ، كأنها موجات أثيرية لفكرها المبلبل الحائر ، على حين راحت هبات النسيم الناعمة تتلاعب بخصل شعرها الجميل الوحف ، وتعبث بذوائبه المموجة ، ذاهبة بها كل مذهب . وظلت مستغرقة في سبحاتها الحالمة غير ملتفتة الى صاحبها «موسيه» الذي اتخذ له مقعداً بجوارها ، وكانت تبدو لأعين المارة في هذا الوضع الغريب الفاتن وهي جالسة جلستها الشاعرية الأخاذة ، حين مرَّ على مقربة منها شابان ايطاليان أنيقان .

أما أحدهما فكان غزير شعر الرأس أشقره ، أقنياً وضيئاً ضامر البنية ، يبدو في السابعة والعشرين من عمره ، فهو شاب في ريق الصبا وزهرة العمر ، وقد عرفت فيما بعد ، انه طبيب وان اسمه « بترو باجيللو » ، أما الشاب الآخر فهو صديق «باجيللو » وصفيه . وتشاء غرائب الصدف أن يكون صاحب الفندق الذي نزل به « الحبيبان» صديقاً للطبيب الشاب ، وتواصل الصدفة حوك نسيجها وحبك أطرافها ، فيستدعي الرجل صديقه الطبيب لعيادة أحد النزلاء ، ويجيء « باجيللو » فيقاد الى غرفة المرأة التي شاهدها وصديقه بالأمس وأطلقا عليها اسم « المدخنة الحسناء ! » .

دخل عليها « باجيللو » فوجدها منكسة رأسها في استرخاء وضعف وقد أحاطته بكلتا يديها وهي تشكو من صداع أليم ، وتتململ في جلستها ، شأن من وقذه المرض وبرحت به نوبته !

أمسك بيدها يتحسس راحتها ويختبر نبضاته ، وهي مقدمات الفحص المعتادة عند كل طبيب ، وشكى « باجيللو » أداءها وهو منتشٍ حالم ، ثم اقترح عليها أن يفصدها فوافقته على رأيه ، واستشعرت بعد الفصدة راحة فرّجت عنها ما كانت تحس من ألم ، واطمأنت الى أنها مستطيعة النزول الى ملهى الفندق « ... » لتمضي سهرتها فيه ، وقبل أن تبتعد عن « موسيه » ، الذي كان مشاهداً لواقعة الحال من بدايتها الى ختامها ، بادرها الحبيب المهجور وهو يصر على نواجذه صرير الغضب المكتوم ، قائلاً : « جورج ، لقد أخطأت وأسعجلني الوهم حتى ضللت في فهم شعوري نحوك ، فمعذرة اذا قلت لك اني لا أحبك ! ؟ » .

وفي تلك الليلة الحاسمة في تاريخ علاقتهما الغرامية ، أغلق كل منهما الباب على نفسه ، واستقل بغرفته حتى مطلع الصبح ! .

كان عليها أن تهجره بعد أن قضى فيها أمره، وعالنها بحقيقة شعوره، وكشف لها خبيئة قلبه، ولكنها تشبثت بالبقاء في الفندق يوماً أو بعض يوم، مدفوعة الى ذلك، كما تزعم في مذكراتها، بعاطفة من الأمومة كانت تحسها نحو حبيبها، فقد عزّ عليها أن تخلفه وحيداً في مدينة غريبة لا يفقه لسان أبنائها، وهو إلى جانب ذلك خالي الوفاض من الدرهم والدانق.

وكأنما أراد القدر أن يبقيه قسراً الى جانبها ولو فترة من الزمن، فقد انتكست وعاودها المرض، ولم يمض قليل وقت حتى كان «موسيه» هو الآخر طريح الفراش، يشكو أعراض حمى خبيثة، على حين برئت «جورج صاند» بعد أيام من نكستها تلك.

لقد حالت حماه بينه وبين كل مقاومة، ووقع فريسة للمرأة وهو لا يدري! أسلمته المقادير اليها وتركتها تفعل به ما تشاء. واصطنعت المرأة الخائن وتكلفت العطف وتظاهرت بالاخلاص والتضحية، وأخذت في البدء تعنى به وتسهر عليه وتحرص على معاونته في كبح جماح المرض ثم تراخت عزيمتها وفترت همتها وابتردت حماستها، وعادت الى الخروج ليلاً مع أصدقائها متناسية ذلك المريض المنبوذ الذي يئن في وحدته عذاباً وحسرة!.

ولكن شعوراً من العطف النبيل ما لبث بعد قليل أن تملكها، فعادت إلى مريضها بعد أن اشتدت عليه وطأة الداء، وكتبت الى صديقها الوصي «بوكواران» تنبئه بحقيقة ما صار اليه حالها، راجية إياه ألا ينبيء أحداً من أصحابهما وحسادهما بباريس عن هذا الذي ألمّ بهما، وألحفت في الرجاء ألا ينبس ببنت شفة عن مرض «موسيه» أمام والدته الرقيقة، لئلا يروع النبأ شفقتها على ابنها وتصدم أعصابها صدمة تتلفها. وكتبت اليه رسالة ثانية تنبئه فيها بما صار اليه حالها من كلال وضعف وضنى، وما انتابها من أرق عريق حرمها لذيذ الرقاد وتركها مسلوبة الحواس منهوكة الأعصاب. ثم تعاودها عاطفة صادقة من الايثار، فتناشده مرة أخرى أن يكتم نبأ مرض «موسيه» عن أمه، خشية أن يودي بها الخبر وتعجل الصدمة بوفاتها.

وكتبت الى المسيو «بيلوز» تقص عليه واقعة حالها مع زميلها في الرحلة، وترجوه في إلحاح وإلحاف أن يرسل اليهما بعض المال تستعينان به على تدبير أمورهما، بعد أن أخذت تسير من سيء الى أسوأ. فقد قالت له متوجعة، إن الطبيب جزم بأن أزمة المرض لن تزايل

خطورتها «موسيه» قبل أسبوعين، ثم ينثار عاجزاً عن مغادرة الفراش مدى شهر كامل، ونفقات التمريض والعلاج كثيرة لا تنقطع والمال يتسرب من بين أناملها جزافاً لتسد به نفقاتهما المتزايدة، وما عادت تملك في حقيبتها سوى متيز فرنكاً لا تغني ولا تشبع، بل لعلها تؤلم وتتورع. وتحـل القول إن الموقف حرج والوضع ميؤوس منـه، إن لم يتداركهما الغوث وتسرع اليهما النجدة. ثم هي لا تنسى أن تذكر له في خاتمة خطابها أن صاحبها «موسيه» أصبح في حال فاحمة من الهذيان واللوثة، شأن المحموم الذي وقذه الداء وبرحت به وطأته حتى أن كتابة هذا الخطاب المؤلف من صفحات ثلاثة استغرق من وقتها تسع ساعات كاملة!

وكانت «جورج ساند» قد استدعت طبيباً مسناً لتشخيص الداء ووصف الدواء، ولكنها لم تستشعر الثقة فيما فعله الطبيب وما قال به، وأكد شكها أن حالتها وحال مريضها لم تتحسن قيد أنملة على علاج هذا الطبيب وعندئذٍ لم تجد بداً من استدعاء طبيبنا الشاب «باجيللو»، وسارعت تكتب اليه ترجوه أن يعجل بعيادة مريضها الفرنسي، على أن يصطحب معه طبيباً آخر للمشاورة وتبادل الرأي فيما يجب أن يتخذه من علاج. وقد قالت للطبيب في خطابها أن أخشى ما تخشاه هو سوء حالة المريض العقلية من جراء تخليط الحمى وجنونها فهي تخشى على عقله أكثر مما تخشى على حياته! ثم انها لا تستطيع أن تقف مكتوفة اليدين إزاء هذه الحالة، فهي تناشد علمه وفنه أن ينقذا هذا المريض من عذاباته، لأنه مريض ليس كمثله مريض آخر، انه شاعر مفلق وناثر مبدع، ورجل في مقتبل العمر له في فرنسا أنصار ومعجبون وهي تؤمل في شفائه، لان ما ألمّ به لم يكن إلاّ نتيجة لسرفه وإفراطه في السهر والمقامرة ومعاقرة الخمر ومعاشرة النساء الساقطات وإجهاد العقل وكدّ القريحة في الانتاج والنظم، وهو في حال من خـدر الحسّ وإعياء الجسم لا توصف! والدليل عندها على بدء اضطراب قوى عقله وتبلبلهـا، ما كان يطيف في وهمه، من أشباح وخيالات: يراها وإياها في كل مكان من الغرفة، محيطة به مطبقة الخناق عليه، فلا يملك إلا أن يصرخ ذعراً من الرعب والوهل، لقد كان يبكي أحرّ البكاء، وهو موقن بالتلف، فإذا عاوده الصحو وهدأ قليـلاً في فراشه، جـزم في قرارة نفسه بأنه مشرف على الجنون لا محالة!

ثم هي: بعد أن تعرض على الطبيب حالته المؤلمة، تكاشفه عما الشاعر وإيثارها له،

فهو معشوقها الذي تلطف في هواه واختارته لنفسها من بين الناس أجمعين ، وهي من أجله حزينة والهة ، وعليه متحسرة نادبة ، وله متوجعة باكية !. واختتمت رسالتها مؤكدة « لباجيللو » إنها تثق في صداقته وإخلاصه، فهي مؤمنة بأنه سيمد لغريبين وحيدين يداً عطوفة حانية ، ترد لها الهناءة المفقودة وتسبل عليهما البرء والعافية . وهكذا حلّ الطبيب الشاب محل زميله الطبيب المسن ، وأخذ من حجرة المريض بفندق « دانيلي » مترددة الذي يمكث فيه الساعات الطوال مطبباً ممرضاً . وأحضر «باجيللو» زميله الدكتور « زوانون » طبيب مستشفى « سان جيوفاني » للمشاورة وتبادل الرأي والتروي في أمر الفحص والعلاج . وقد أسفر تشخيص المرض عن إصابة « موسيه » بحمى التيفود العصبية ، وهي أشد أنواع الحمى خطراً وأنكاها أثراً .

ولقد عانت « جورج ساند» في بداية تمريضها لصاحبها الأهوال والمتاعب إذ كانت تجلس مع الطبيب « باجيللو » على أريكة مجاورة لفراش المريض ، ساهرة الليل حتى مطلع الفجر، مراقبة شاعرها ، حانية عليه ، مستجيبة له مسرية عنه ما وسعها الجهد ، حتى أنها لم تتمكن من خلع ثيابها لتستبدل بها غيرها مدة ثمانية أيام كاملة !.

وأتيحت للطبيب الشاب الفرصة سهلة مواتية ليجاذب من وقعت في نفسه موقع الافتتان والاعجاب ، أحاديث الأدب والشعر ، ويناقل هذه الغانية الناضرة المصقولة العقل والفكر ، مشادرات الأدباء والشعراء ، ويلقي في أذنيها المأثور العذب من أخبارهم وطرائفهم . تحادثا في الأدب الايطالي ، وتطارحا الرأي في كتابه وشعرائه ، وانعطفا في حديثهما الشيق ، والحديث ذو شجون ، نحو الفن الايطالي ومدارسه وكبار فنانيه ، وكان الطبيب يحدثها في كل هذا ، وفي تاريخ البندقية وآثارها ، وعادات أهلها وطباعهم ، حديث العارف الملم بما يرويه ويحكي عنه . وكأنما كان الرجل يكتم عاطفة تبري جوانحه ، فهي تنضح على لهجة حديثه وتفصح عن مخبوئها بما يقطع نبرات صوته من تهدج وتحبس ، وما يعتري أعصاب يديه وجفنيه من إختلاج ورعشة !.

وكانت « جورج ساند» تعاجله بين الحين والحين بسؤال غريب ، فهي تستفسره عن سر ما يفكر فيه ، ولماذا تبدو نظراته أحياناً ذاهلة ، كأن ظل بعقله بعيداً عن مجال الحديث .

ولكن الطبيب صامت لا يحير خطاباً ، كأنما يخشى أن يخونه المنطق فيفضح المكتوم من سره ويظهر الخبوء من أمره . أما هي فترميه بنظرة ملؤها السحر والفتنة ، وتسبيه بلحظ فتان جمع بين الكَحَل والنَّجَل ، وتعابثه بمداعبة معبودة وبعبارات رقيقة مختارة ، كأنما تستصفحه عن لغوها وتثقيلها ! .

لقد أقامت المرأة قيامته ، وسلبته حسه ووعيه ، وتركته خافق القلب منتفض الجوارح مبلبلاً مدهوشاً ؟!

إنها وقعت في نفسه منذ اللحظة التي شاهدها تدخن سيجارها في غرفة الفندق ، ولكنه اليوم بها هائم ولها وامق ، لا يطيق فراقها لحظات قصاراً ، ولا يربط متمناه بأمل غير أمل البقاء بجوارها ليظل مأخوذاً بعذب حديثها ، مجذوباً بسحر عينيها ، مفتوناً بجديد ما تطالعه به كل يوم من أفانين عبثها ودلالها ، كأنها تتعمد أن تستثير بها نوازعه وأن توقد بلهيبها مراجله ! .

وضاق المريض ذرعاً بهذه الاحاديث ، التي لم يكن ليعي مرماها وهو محموم غائب الرشد وبرم بجلبة الصوت وضجة الكلام ، ولم يتحرَّج ذات ليلة أن ينهرهما وهو نافد الصبر مهتاج العصب ، ويطلب إليهما غاضباً ، أن يبتعدا عن فراشه ليهدأ في رقدته ويستغرق في نومته فما كان منهما إلاّ أن زحزحا مقعديهما لَصْقَ منضدة صغيرة بجوار المدفأة ، وواصلا ثمَّ المطارحة والحديث ! وختم « بلجيلو » كلامه قائلاً لها : « أحسبك تنوين الكتابة عن البندقية ، فهلاً سجلت ، ياذات البيان ، ذكراها في قصة خالدة من قصصك الجميلة الرائعة ؟ » . وأجابته جوزج موجزة : « أحسبني سأفعل » ، ثم تناولت ورقة ومرّت على سطورها بيراعها الكفي مرّ البرق إذا خطف ، على حين تناول « باجيللو » قصة الشاعر الروائي « هرجو » وراح يقلب صحائفها بصر زائغ وعقل شتيت ونفس شاردة ، وظلت صاحبتنا تكتب مدى ساعة من الزمن ، ثم ألقت بالقلم جانباً وضمت الورق وغلّفته ، واسترخت في جلستها - بعد ان أحاطت رأسها الجميل بيديها الناعمتين وظلت في مقعدها صامتة جامدة لا يسمع منها صاحبها غير تردد انفاسها تعلو بصدرها البديع وتهبط .

وأخيراً أمسكت بالقلم وحاولت أن تخط على الغلاف شيئاً ولكنها لم تفعل ، وناولت

الطبيب الرسالة فانتظر اشارتها ظنًا منه أنها ستكلفه تسليمها إلى بعض من ستذكرهم له وأفصحت نظرة الرجل عن سؤاله، وعندئذٍ أمسكت الكاتبة بقلمها وخطت على الغلاف هذه الجملة: « إلى الفتى بانجيلو ! » . ثم تناولت مصباح الشمع، وخطت في دلال الى فراش مريضها، الذي كان مستغرقًا في نومه، ورنت الى الطبيب الواقف بجوارها رنوة ذات معنى وتكلفت أن تسأله عنه، وهل سينام ليلته هادئًا مطمئنًا، فلما أجابها بالايجاب ووعدها بالرجوع لعيادته صباح الغد، أذنت له بالانصراف، فتناول الرسالة وودّعها قاصدًا بيته، وسار في الطريق مستحثًا خطاه، وهو يتحرّق شوقًا إلى قراءة ما خطته أنامل فاتنته.

كانت رسالة المرأة صدًى مردّدًا لوساوس ضمير قوّام على إيلامها. لقد حاولت أن تخدع نفسها بمداورة عواطفها ومخادعة ضميرها وقلبها، لتحدد شعورها حيال هذا الذي يطاردها بنظراته الدالة الملحة، ويتابعها بأنغامه الآنة الشاكية، ويلاحقها بكلماته الساحرة وحركاته الفاتنة، ولكن هيهات، فقد كان لتأثيره المتغلغل في قرارتها دوي وصدى، فانجذبت في غير وعي اليه، وإن حاولت التحفظ بضرب مكشوف من الدلال والتأبي؛ وتكلفت الأناة والريث لتستكنه حقيقة ما خالج قلبها من شعور وما ارتكض فيه من عاطفة! قالت له أن كلًّا منهما وُلد تحت سماء تغاير سماء الآخر، وقد طبعت البيئة كلًّا منهما بخصال خاصة، وركبت فيه أفكارًا ومثلًا تباين أفكار الآخر ومثله، فهل يمكن أن يتماثل القلبان ويتجاوب الشعوران، فيعاطف كل منهما الآخر بعد هذا الاختلاف والتباين؟

نعم، إن سماءها المتجهمة الدائمة بلون القتام، قد نمّت فيها طباعًا سوداوية عميقة غائرة تشيع فيها رجفة الكآبة، وإن كانت كآبتها غير المبارحة تشرق في بعض الأحايين بالمرح والعذوبة والرقة، محاولة أن تبدّد من ظلماتها الخيمة، على حين ان سماءه المشرقة ذات الشمس السافرة العالية، قد غرست فيه من المشاعر الحارة والعواطف المضرّمة، ما سكب في قلبه أفاويق الوجد والوله، ونضح على وجهه القسيم بهذه السمرة المتوهجة بالفتنة والحسن، فهو ابن الطبيعة الحالمة الشاعرة، التي يثيرها الحفز والاستدعاء، ولا يفتّلها الإعراض والترك!

لقد كاشفته في خجل مثير، بما توحيه اليها نظرته الجريئة المقتحمة، وأساريره القوية

المبرقة، من استشعار الخوف والفزع ، فيوله العارمة التي تطالعها واضحة على صفحة وجهه ، وتقرأها مبثوثة في نظرات عينيه ، تروّع دعتها وأمنها ، وتسلبها الرزانة والعقل وتجعلها مبهورة مضيعة ، عاجزة عن كبح جماحه ومطامنة غلوائه.

إنها لتعجب لهذا كله وتملك الحيرة عليها مسالكها ، فما عهدت من قبل هذه العاطفة المشبوبة الضرام في وطنها، ولا لقيتها مثل الذي شاهدته هنا من حرارتها وقوتها وغنى ألوانها. إنها لتحب وتتألم وتستغرقها عذابات الحب وآلامه، وتتقدم الى فارس أحلامها وهي موزعة القلب بين الرجاء واليأس ، والطمأنينة والخوف ، ولكن نزقه وخبلته في إظهار كوامنه ، أعجزاها عن فهم عقدته واستبطان خبيئته.

فهي لا تعرف إن كان هذا هو الحب حقًا أم أنه شيء آخر سواه، لا تعرف إن كانت لغة القلب تكفيهما لكي يتفاهما معًا ويتبادلا عن طريقها الأفكار والخواطر ، ما دام كل منهما يعجز عن أن يجيد لغة الآخر، ويأخذ عنها ما يسنّي له صور التعبير الكلامي ويطوع عصيها أمامه ، أم أن الأمر على النقيض مما تخال وتظن ؟ ثم هي من بعد ، لا تستطيع أن تخرس ألسنة الوساوس ولا أن تهدىء ثوائر الشكوك ، فتوحي الى نفسها الطمأنينة والثقة بأن صاحبها رغم مباينته لها في كل شيء ، سيكون في هواه أوفى المحبين ! .

نعم ! إنها لا تدري ما إذا كان يفهم حقًا آلامها وأوجالها ، أو يقدر صادقًا همومها وأحزانها ، وهل تراه يعطف عليها عطف المحب على محبوبه ، أم يشفق عليها إشفاق السيد التياه المتجبر، على عبده الضعيف المتذلل ؟ ! ثم هي تسأله ملحة مشفقة في آن

ماذا جذبه اليها وعطفه عليها ؟ أهي فتنة إمرأة الحريم تتربّب في المقاصير، لتكون بعيدة منال الزمام على كل من رامها ، ولتخلص لوجه مولاها وجلادها وحده ، أم تراه سر من الأسرار طالعه فيها . وغمّ عليه خبيئه فأراد أن يهتك حجبه ويكشف أمره ، ليشبع متعة له عارضة ، أو يرضي نزوة لشباب سوارة متعجلة ؟ !

فاذا كان حقًا قد برمته الآلام والأوجاع ، وعركته الأحزان المطلقة في القلوب المصدوعة والكبود الذائبة ، وإذا كان عرف كيف يسيل قلبه من عينيه ، وكيف تتلهب نار الحزن في أنفاسه وزفراته ، ولا يبخل على حبه أن يبكيه بدموع حرة لا ترقأ ولا تجف،

إذا كان حقًا عرف شذاكه وأحسه واكتوى به ، فانها القمينة أن تفضي عطفه على حظ عاثر قاصته ، وأن تؤمل في إشفاقه على جسم موجع عرقته الهموم وأضنته ، وتردّى في هاوية الألم حتى قرارها ، وعندئذٍ تمد اليه يد الصداقة البريئة الخالصة ، بل الأخوة النبيلة المكافئة ، بل ذراعي الحب الوفي ولهته الهوى وبرّحت به وقدة الهيام والعشق.

إنها لن تحجم عن أن تدفع بنفسها في أحضانه ، ليرتشفا معاً ، مفاغم الحب من الشفاة والروية الثادية بنبع العاطفة ومفيضها العذب، ويتساقيا أنخاب الوفاء ليتفاديا، ويتكاشف كل منهما لصاحبه عن أقصى ما يقدر عليه من التضحية والايثار والبذل !

قرأ صاحبنا الرسالة المرة تلو المرة ، وحار طويلاً في أمر صاحبته ، ولجّ به الدهش والعجب ، وتساءل وهو يقلب عينيه بين سطورها للمرة الأخيرة : أتراه وحي القلب العميد وإلهام الطبع الرهيف ، يرفعان معبوده الى أسمى طباق الطهارة والملائكية ، أم هي وساوس نفس رجيمة ليس من طبعها أن تكون طاهرة الدّخلة مأمونة المغيّب، فهي تتوهم في غيرها ما تحمله معتملاً بين جنبيها ، ويعجزها أن تصوّر في هذا الغير ما أعوزها أن تراه محققاً في نفسها ؟

ولم ينقذه من عذابات شكه وحيرته الا اطمئنانه مؤقتاً الى وجه من التفسير يؤكده سياق الواقع وترضاه نتائجه، فهو طبيب صغير ناشىء ، ما زال يخطو على عتبة الحياة الجادة العاملة ، يود صادقاً أن يجوز خطاها الاولى لا يلوي على شيء ، ولا يتلبث في غير ما يدعو اليه منهج هذه الحياة من وناء وريث ، وليس وراء الاستسلام لمحبتها العاطفة غير الركود والجمود والشطط مع الأهواء بعيداً عن محاسبة الضمير وتأثير زواجر النفس ، وفي ذلك إطراح لكل أعباء الواجب الانساني الذي يجب أن يستهديه في كل خطوة يخطوها في طريق الحياة ! ثم ان مريضه رجل أجنبي ناءٍ عن الدار والأهل ، بعيد عن المواساة والعطف وقد وثق في شرف طبيبه ومروءته ، واطمأن الى صدقه ورعايته . فكيف يرضى لهذا المريض العاجز أن يكون منلوم المرض مهدور الشرف ، وكيف يقدم بنذالة على الاجهاز على هذه الوصلة النبيلة التي تصله بهويته كطبيب ، وتربطه بحاضره ومستقبله كانسان شريف النفس طاهر الذيل ، امين على أسرار الناس وأعراضهم ؟ !

. ولكن ما حيلته وهذا هو وضعه من قضاء القدر العجيب الذي نصَّ عليه حكمه، وقدَّر له مخالطة أبطال الحادثة وملابستهم في محنتهم تلك ، وهيأ له أن يسير طائعاً مختاراً الى حيث مهوى فؤاده ومراد خاطره ؟ ولكنه يصطدم بصخرة الواجب ، وللواجب قانون حقيق أن ينسخ الهوى الحرام ، وينهي مشدداً عن تبذل الاعفاف والدناءة ، ومع كلّ فهو محب وامق ، يضطرم قلبه بسعير العاطفة لا يرحم ولا يخف ، ولن يسرّي عن مكظومه؟ إلاّ أن يفضي عما يلقى ، ويفضفض عما يحس ، أما خنق الصوت وكتم الأنفاس ، فوراء مقدوره وفوق طاقته ، وهما لن يجدياه غير معاناة المرهقات المزلزلات للصبر والعزم !! . ولكن حسبه من هواه أن يتمتع بقرب من يهوى ويتزوّد بالنظرة المروّحة من عين من يحب، فما بعد الهوى الشريف، والحب العفيف، لذة لحس، أو متعة لنفس، أو نجوى لقلب.

ولكن ما وضع صاحبنا «موسيه» من هذه القصة المرّة التي تحاك فصولها الفاجعة على مقربة منه، وتتوالى مشاهدها الجريئة على قيد خطوات من فراش مرضه ؟ ! هل لاحظ فشكّ هل استشعر وفهم الفجيعة ؟ فبكى بقلبه حبه ، ولم يخرج بسر ما عرف عن موضع الكتمان من صدره ؟ يا الشاعر المسكين ، انه رجل منكود الحظ ، عاثر الجد ، فما كان تخليط الحمى وهذيان المرض ، ليحجبا عن عينيه ، مأساته التي يوشك أن يتردّى في قرارها المظلم، بل أن حساسيته التي أرهفها المرض وزاد في وقدها ونبضها ؛ هي التي هدته الى مكامن الخيانة ومواطن الاثم، ووقفته على مباذل هذا الحب الشائن، وخزيه الفاضح؛ وسلحته بالعلم اليقين، والحق المبين ، عن هذا الحادث الجلل، وبهما تلقف موجع الفؤاد ، مثلوم الكرامة، مكلوم الصدر ، لجيعته الصارخة في حبه ، ولمس بيديه مقاذر خيانة من أعطاها قلبه الرقيق وعلقها فؤاده البريء ، ونزّهها ضميره الطاهر الطيب عن مشاين الغريزة، وحوافزها العمياء المقلدة !.

فاجأها بدلائل خيانتها، وجبّهها بشواهد إثمها، وأخذ عليها نائماً حنثها بالعهد، ومينها بالموثق . ولكنها استخفت به وسخرت منه . وزادها استخفافاً وسخراً ، شحوبه البادي وضعف جسمه الفارغ وتخاذل أعصابه من وقدة الداء ونهكته ، وعجزه بطبيعة الحال عن إنفاذ تحديه أو إظهار مقاومته . فهو منهما بموضع المنبوذ الممتهن !

كانت تعيّره بجنونه ولوثته ، وتصرخ في وجهه تذكره بأنه ضائع الرشد ماتات العقل،

وتهدده بإرساله الى مأوى المجانين بالمدينة ، ليقضي ثمّ عمره حبيس جدرانه ، رهين أسواره وسلاسله ! وكان لضعفه ووسوسته ، يكاد يوقن في قرارة نفسه أنها مستطيعة إنفاذ عزمها ، بل قد تذهب مع عشيقها الى ماهو أنكى من هذا وأقبح ، ففي مقدورها أن تقتله غيلة ، وفي مقدور عشيقها الطبيب أن يساعدها على مواراة الجثة وإخفائها ؟ !

وهكذا كان المسكين ضائعاً بين وساوسه وأوهامه ، موزّع الحس بين أطيافه وخيالاته ؛ لا يستطيع أن يقضي أمراً أو يعقد عزماً أو يهتدي سبيلاً !

وتزيد وساوسه وتحز في نفسه وتوجعه ، فكل حركة مألوفة هي عنده دليل خيانة فاضحة وبرهان إثم جديد .

فهذه المنضدة الرتيبة المنسقة ، التي يعلوها قدح الشاي وسائر أدواته الفضية اللامعة ، هي بغير شك معدة لاكرام العشيق ، مهيأة لمطارحات الخلوة وتشاكي الصبابة . لقد صدق حدسه وارتبط قلباهما برباط واحد لأنهما شربا من قدح واحدة ، جرياً على مصطلح العشاق ؛ وأخذاً بسنتهم المعهودة ، وعادتهم الجارية ! . ثم ها هي ذي تجلس الى فراشها في ليلة هادئة ساجية ، لتكتب على ضوء الشمعة رسالة طويلة تستغرقها ، فاذا فاجأها في جلستها تلك ، وسألها عما تكتبه وإلى من ، اضطربت وعلاها الوهل والجزع ، وتبادر مرتبكة الى إطفاء الشمعة ! ويعجب المسكين لشذوذ مسلكها ، ولا يستطيع في بادىء أمره أن يفسر التناقض البادي في هذا العمل ، فتزيد شكوكه وتتجسم أوهامه ، وخاصة عندما يراها تغادر الغرفة مهرولة ، فيزيدها لعناً وتقريعاً ، ويجري خلفها صائحاً فيها ، مشهراً بإثمها ، معلناً خيانتها وفجورها ، وبعد فما عاد هناك ستر يحجب سرائرها عنه ، لقد شاهدها بعيني رأسه تكتب لعشيقها الغادر ، وهذا حسبه من مفصّل الأمر وجمله ! .

وهكذا أدرك المسكين ، وبقايا الحمى تلهبه وتكاد تذهب بقوى عقله ، أن ذلك الطبيب أصبح عشيقها ! . أدرك أنها اغتنمت فرصة مرضه وخدعته ! أدرك أنها تعمدت ارتكاب هذه النذالة لتجهز على البقية الباقية من أمله وتقطع بينهما في المستقبل كل صلة ! أدرك هذا كله إدراكاً عميقاً جارفاً ساحقاً . وفي تلك اللحظة التي خلدها من بعد في أشعاره ، أحس همومه ، إحساساً طارئاً غريباً ، أن كل شيء قد انتهى ، وأن الكرامة أعز من الحب

وأن الحرية أغلى من الهوى ، وأن الحيـاة أرحب وأجل من أن تحصر في شخص امرأة واحدة ، فعقد العزم على أن ينقذ نفسه ، ويحطم قيده . ويتخلى عن « جورج صاند » متى استطاع مغادرة الفراش .

ولقد ردّ اليه الألم رجولته ولم تثنه الحسرة الدفينة عن عزمه . فلم يكد يشفى حتى جمع أمتعته وحزم حقائبـه وودع المرأة المنشودة ، وعاد بمفرده من حيث أتى .

عاد إلى باريس يحمل شخصية رجل ، ولـكن قلبه كان قد مات ، مات فترة قصيرة من الزمن لتبعث عذاباته في خلالها عمراً خالداً على مر القرون والأجيال .

— ١٠ —

تـكفير واتاج

كان لوقع الصدمة في نفس الشاعر حزنٌ عميق دونه حز النصل المتغلغل المرهف . وكان جرح قلبه العصيب من العمق إلى الحد الذي يكاد يصعب معه دواؤه وشفاؤه ، لقد كادت تخلف له التجربة عقدة نفسية في مكنتها أن تنكأ جرحه كلما التأم ، وتستوقد ضرام قلبه بالسخط الفائر كلما استقرّ أو هدأ . كان قد وعد أمه الملتهفة على أخبـاره ، في رسالة متأخرة منه إليهـا بالعودة وشيكاً ريثما يبل من عقابيل دائه ويبرأ من أوهاق مرضه ، ويَنْـتَقَه جسمه الضارع وتستوسق بنيته الحطمة . وقد ذكر وهو في غمرة جارفة من حزنه ويأسه ، أنه سيعود ، إليهم حاملا جسماً منحلاً ونفساً محطمة وقلباً ينزف دماً ، ولـكنه لن ينزف رقته وطهارته وما يكنه لهم من إعزاز وإيثار وحب ! .

عاد « موسيه » إلى باريس وحيداً مستوحشاً ، في أواخر مارس ١٨٣٤ . لقد كان المسكين حزيناً على ما خلفه من حطام القلب وعثار الجد ، متحسراً على هناءة ولّت ، وسعادة أدبرت ، ونعيم لألا سناه في سماء العمر لحظة لمت كومضة البرق ، ثم خبا وانطفأ . ولكنه مرتاح البال مطمئن الضمير ، فقد كان وفيـّا لعهده ، خالص النية في الولاء لمرتقه . ولم يكن مرده في طلب المتع والشطط مع الأهواء ، إلا مظهراً لحبه المرح وسعادته المتوهجة ، أراد أن يشاركه

الناس في سعادته ومرحه ، وأن يبادلوه أنخاب المناغاة والمحبة ، وأن يعانقهم ويعانقوه ، وهم جميعاً في غمرة من حُمَيَّا السرور والنشوة ، تتجاوز بهم حدود الخير والشر ؟ !

ولكن صاحبته أساءت به الظن ونال من كبريائها هذا المظهر الشائن ، لأنه في رأيها دليل أنوثة متميّعة ، لا رجولة مدلة برزانتها وثباتها ورجاحة عقلها . وثقل عليها هذا اللون العجيب من الحب الطائش النزق ، وجرح كبرياءها كأنثى مسترجلة الطباع ، عشوشنة في خصالها وخلالها ، أن تظل أسيرة لهذا الحب الذليل المخنث ، فهي تؤثر عليه الرجولة القوية الآسرة ، تزينها الارادة المصممة الماضية ، والعزم النافذ المجلان !

ولكن الشاعر ما وصل إلى « بادوفا » حتى انتكس عزمه واستخذت إرادته ، ولان قلبه لمن خلّف وراءه في جنّة الهوى والحب ! لم يتمالك نفسه فجمع أشتات قلبه ، وصبّ ذوبها المتقد في رسالة حارة تفيض بالشكوى وتئن من التوجع بعث بها إليها من جينيف .

قال لها في رسالته تلك ، إنه تركها متعبة منهوكة عما قاسته طيلة شهرين كاملين ، وتمنى لها أن تكون سعيدة هانئة في حياتها ، وأمَّل أن تكون هذه الحياة مليئة بحلوياتها ومشوّقاتها ، بعد أن غصت بأتراحها ومنغصاتها ! إنه لم ينكر في رسالته ما قاساه هو الآخر من العذاب والألم ، ومن التنغيص والحسرة . لقد قاسى بدوره طويلاً وبكى بقلبه كثيراً ، لا لشيء إلاّ لأنه ما زال يحب طفلته المدلّلة «جورج» ويطوي على دفين غرامها جوانحه !

إنه لأمرٌ جدّ عجيب ، ولكن ما تفسير ما حدث ؟

لقد قامت بينهما شبه عقدة من شذوذ النفس لوّنت غرامهما بالشذوذ وطبعته بطابع الغرابة ، ومتحت عينيه عن الهوة التي فصلت بينهما وبتت روابط غرامهما في لحظة ! إنه حب بعيد المنال مُستَبشَع ، كذلك الذي ينشأ بين الأقارب المحرّم زواجهم عرفاً وشرعاً ؟ !

وردّت عليه الكاتبة برسالة أخرى تقول له فيها: إنها لا يعنيها في شيء أن تكون أمه أو عشيقته ، فسواء عندها ألهمته الحب أو الصداقة ، سعدت معه أو شقيت ، فهذا كله لن يغيّر من أمرها معه شيئاً ، وما أمرها معه إلاّ أنها تحبه أعمق الحب وأقواه ! كيف لا وهي ما إن سمعت بأذنيها ما نسبه اليها — في ساعة من ساعات هذيانه وتخليطه — من العجز عن إشعاره بالملذات الحب ونعمه ، حتى استحرمت في بكائها ، وجُنّت في حزنها وسخطها ، ولكنها

الآن تشعر واثقة ، بأن ثمة جانباً من الحقيقة يلمع فيما قاله يومئذٍ لها وقت أن كان محموم الجسم مدخول الذهن ، ولكن أنى لها أو له أن يعدا ذلك أو يدركاه على وجهه الحق ؟

لقد كانا بحبهما المشبوب العارم ، في شُغُل عن كل ما يقطع عليهما سلسلة الأحلام الجميلة ومواكب الآمال العذاب . ثم جاءت في نهاية رسالتها بوصف قصير لحياتها بالبندقية ، ولم تنس أن تبثه في ختامها الحار أشواقها المؤججة ، وأن تطبع على ثغره ، على البعد ، قبلاتها العديدة الملتهبة !

ووصل « موسيه » إلى باريس في ١٢ ابريل سنة ١٨٣٤ ، وحاول أن ينسى كل أحداث هذه الرحلة وأهوالها ، ولكن المحاولة كانت فوق طاقته . فلقد ألحت عليه الذكريات الموجعة ، ونكأت في قسوة جراحه المندملة .

ولما أن لجَّ به الشوق واستبدت بقلبه العاطفة ، كتب إليها يقول : « إن المباهج التي ذقتها وأنا حالم ، بين ذراعيك ، كانت أطهر من كل سرور آخر عرفته ، ولكن لا تقولي إنها كانت أقل من غيرها أو أهون شأناً . لقد قضيت بين ذراعيك لحظات تردّني ذكراها عن التطلع الى أية امرأة أخرى في الوجود » ؟!

وقتل الشاعر آلامه وأوجاله ، وفرّج عن شكوكه وعذاباته ، بالاستغراق في لجج القراءة والكتابة والتأمل . وكان في تلك اللحظة يديم قراءة قصة « جان جاك روسو » الخالدة : « هيلويز الجديدة » .

وظلت خطاباتها تتوالى عليه ، فهي تكلفه بما لها من دلال عليه قضاء كثير من حاجاتها وسهامها في باريس ، وهو يرد عليها مؤكداً لها صداقته ، شاكياً اليها حاله وهمه !

والعجيب في أمر صاحبنا أن « جورج صاند » لما عانته بعزمها على المجيء الى باريس ، وفي صحبتها صديقها « باجيللو » ، سارع يكتب اليها مرحباً بها وبه ، حاثاً إياه ، بدعوة خاصة من عنده ، على الحضور معها إلى باريس !

وحضرت « جورج » مع « باجيللو » في أغسطس سنة ١٨٣٤ ، وقد اختار الطبيب فندقاً من فنادقها للاقامة فيه ، على حين قطنت « جورج » في شقتها بالكاي ملكاي

ولما أن علم « موسيه » بمجيء حبيبته هاج هائج العشق في صدره من جديد وثارت كوامن

حبه ووطنه ، وكتب اليها راجياً أن تفسح له في فرصة لزيارتها ، فهو يود مخلصاً أن يودعها الوداع الأخير ويطبع على ثغرها قبلته الأخيرة ، نافثاً فيها محموم حبه ، وحمم قلبه وصدره .

واستجابت المرأة الى ملتمسه وجلة مشفقة ، وجاء « موسيه » ومكثا عندها مدة من الزمن ، تشاكيا فيها تباريح قلبين منفطورين أقصدهما من كنانة الدهر سهم مُراش، وما رجع الشاعر حزيناً الى داره حتى حزم أمتعته على عجل ، وشخص من فوره الى باد Bade ، عساه ينسى في وحدته الجديدة وساوسه وهواتفه .

ولكن جوّ حياته ما زال معتكراً كابياً ، وقلبه ما زال ممزوقاً ينبض بألمه وشجوه ، فما وجد ثمّ سبيلاً الى النسيان والسلو ، ولج به الحنين الى « ملاكه » النائي ، وعروس أحلامه المضيعة ، فكتب اليها رسالة تتوهج بسورات التبريح وتتقد بنفثات اللوعة والوجد ، رافعاً اليها أحرّ التوسلات وأوجع الاعترافات ، فهو يقول فيها : « أي جورج حبيبتي الموموقة ليس ثمة رجل أحب كما أحببت ! إنني امرؤ عاجز مضيع ، غريق في لجة الحب حتى قرارها . إنني لا أدري إذا كنت أنهج في حياتي نهج الآخرين ، فأمشي وآكل وأتكلم؟ ! كل ما أعرفه أنني أحبك وهو حسبي من كل شيء ! »

وأرسل إليها خطاباً آخر ينبئها فيه بعزمه على العودة الى باريس ، مصمّاً أذنيه عن تحذيرها له من شكوك « باجيللو » التي بدأت تقض مضجعه وتنغّص عليه عيشته : اسمعه يقول لها : « إنني لأعترف لك بأني لن أراعي أحداً فيما أقوله وأفعله بعد اليوم ، وإذا كان هذا « البندقي » يتألم ، فليتألم ما وسعه احتمال الألم ، إنه علمني بدوري كيف أكتوي بغصص الألم وكيف أجرع كؤوسها حتى الثمالة ! » .

ولما رجع « موسيه » إلى باريس ، أرسلت إليه « جورج صاند » خطاباً حزيناً تلح عليه فيه أن يهيء لها فرصة للقائه من جديد . ولم يكن أمام صاحبنا المتيم بُدٌّ من أن يستجيب إلى هذا النداء الجميل ، فذهب تتوزعه أمانيه الهينة ، إلى حيث سعد منها بساعة لقاء وعتاب ، اختلساها من غفلة الزمن ، ولكنها كانت جمرات من الحسرة والغيرة تلظى بلهيبها قلب الحبيب « باجيللو » الذي لم يطق أن يظل واقفاً منهما موقف الرقيب الشاهد ، لا يملك بوادر غيرته ويعجز عن أن يصب عليهما جام نقمته ، فقفل راجعاً من حيث أتى ، لا يلوي على شيء !

وظلت قصة العاشقين سلسلة من التلاقي والانفصال ، حتى قرّ رأيهما على أن يساكنها في منزلها ، وكان ذلك في أكتوبر من ذلك العام .

ولكنهما ما تلاقيا حتى قام بينهما ، من جديد ، ما يشبه عقدة السحر . فافترقا فراقاً لا لقاء بعده. وضجرت «جورج ساند» من حياة المدينة، وتثقل عليها جوّ باريس، فشخصت إلى نوهان في ديسمبر عام ١٨٣٥ . ولم يعد «موسيه» يطلب مودّتها أو يشتاق رؤيتها . وهكذا أسدل الستار على الفصل الأخير من مأساة شاعر الحب والألم !

قد يتداخل القارىء العصري الذي طغت عليه إصداء الحياة المادية فكادت تتلف الأوتار الحساسة في روحه وعقله — أقول قد يتداخله العجب العاجب من هذه الحياة العاطفية المضطرمة ، المليئة أبداً بصور شذوذها وتناقضها . ولكنا نسارع فنقضي عجبه ، عندما نقول له ، إن منهج العصر الرومانتي الذي كان يقوم على تغليب العاطفة على الفكر ، وإعلاء شأن القلب ليسيطر على الذهن ، والمغالاة في الجنوح إلى إتيان ما لا يقره المنطق كله من أعمال وأفعال وأخيلة وآراء ، كان الموجّه الأول لشبيبة ذلك العصر الوطنانة الحالمة والهادي لها في كل ما كان يأخذ بكظمها من مشاعر وعواطف ، وما كان يقود زمامها من حوافز وأهواء !

وفرغ « موسيه » لاتجاه الأدبي العظيم مرة أخرى ، وعكف من يومئذ على كتابة ذكرياته الفاجعة في صورة اعترافات أليمة مرّة ، غلبت المرارة فيهـا الندوة وطغت فيها الشقاوة على الهناءة . وهكذا سوّد « موسيه » كتابه « اعترافات فتى العصر » من سواد قلبه وصدره ، وطبعه بطابع تشاؤمه وحيرته ، وأجرى عليه أنّيه ووساوسه وشكه ، وجعله رمزاً أبديّاً لتلك العلة الغائلة التي ابتدع لها اسمها الطريف « مرض العصر » فعبر بها أصدق التعبير وأبلغه عما كان يخالج شبيبة عصره ، وما ظلّ يخالج شبيبة الأعصر المتعاقبة !

وصف الشاعر في كتابه هذا قصة شاب عاطفي المزاج هو « أوكتاف » . والمطالع لما ساقه « موسيه » من أوصاف لهذا الشاب ، وما زحم به أفق حياته من العواطف المزعجة التي تزيد ضرامها الطرائف والمفارقات ، يوقن أن « أوكتاف » هذا ليس إلا شاعرنا « موسيه » الذي تقمص شخصية البطل وأدار على لسانه أفكاره وخواطره في الحياة

والأخلاق. كما يرى أن بطلة القصة « بريجيت برسون » ليست إلاّ صورة صادقة « لجورج صاند » . أما صاحبنا « باجيلو » فهو ، بغير شك ، « سميث » بطل القصة الثالث . وصاغ من « ديجينيه » وهو شخصية أخرى من شخصيات القصة البارزة ، رمزاً يمثل كل من استعبدتهم شهوات الجسد في فترات التخاذل النفسي ، وكأنه يرمز بها أيضاً إلى نفسه .

وقد لا نكون غالين اذا قلنا ان « موسيه » بوضعه هذه القصة قد اقترب قليلاً من المذهب الواقعي في الأدب ، ذلك المذهب الذي يستهدي صميم الحياة فيما يعالجه من صور وأفكار وخواطر ، ويحلّل ما يقود الحياة الانسانية من خفيّ الاحاسيس .

وهكذا ظلّ الألم الناجع منبعه الثّر الذي يمده بكفايته من الوقود والحَفْز لمواصلة إنتاجه وإبداعه .

نعم إنه اليوم ابن الآلام وشاعره ، يستوحيه صوره وآياته ، ويستلهمه في الحياة روائعه وبيانه . قال لأخيه مرّة وهو غارق في سبحات فكره : « إنه لمن بؤس الانسان أن يكون الألم عنده مصدر شعور باللذة فينعم به كما لو كان ينعم بحادث سعيد ! »

وقد أحسن « موسيه » وصف حالته من بعد ، فكتب عام ١٨٣٩ يقول : « كنت أعتقد أني لن أشعر بأدنى ندم أو ألم من جراء البعاد والهجر . نعم ، لقد ابتعدت مزهوّاً ، ولكن ما إن قلبت النظر حولي حتى رأيتني أخبط في صحرائهما ، وأحسست ان جميع أفكاري تتساقط من حولي تساقط الورق اليابس من منابته على الغصون وأخذ يدب في نفسي شعور مبهم ، ولكنه أشاع فيّ الحزن العميق ، ولما أن أعجزتني مقاومته ، استيأست وتركت حبل نفسي ملقى على غاربه ، ووقعت فريسة الألم ، وتنكرت لعاداتي وخصالي . وقطعت ما بيني وبين العالم ، وحبست نفسي في غرفتي مدى أشهر ، أبكي حظي وأندبه . وظللت وحيداً لا يقع نظري على مخلوق . ثمّ ما لبث أن هدأ ثائري وصفت أخلاقي ولانت زماتي ، ذلك لأني عرفت معنى التجربة ، وآمنت صادقاً أن الألم يعلمنا حقيقة الحياة ! »

وفي تلك الفترة طلب الى صديقه مسيو « بيلوز » رئيس تحرير مجلة العالمين أن يكتب له قطعاً خيالية ، فأعطاه بعد قليل قطعة نثرية هزلية باسم « لا يتلهى بالحب » . وكثير من أجزاء القصة يحمل في أطوائه وصفاً بارعاً لحالة الشاعر النفسية في ذلك الوقت . فبطلاها

« كاميل » و« برديكان » يتجاذبهما صراع عنيف بين الحب والكبرياء . وكانت قصته المسماة « فانتازيو » ، وقد سلمها « لبيلوز » قبيل الرحيل إلى إيطاليا ، من خيرة قصصه التي صوّر فيها بأمانة خواطر الشباب وأحلام المراهقة ، فهي أنموذج حي صادق لكل انسان يعيش بقلبه أكثر مما يعيش بذهنه .

وعاد الشاعر الشاب الى حياة اللهو والقصف ، واتصل في ذلك الحين بجماعة من شبيبة العصر التياهة المتطرفة ، كان على رأسهم الأمير « Belgiojoso » الايطالي وزوجه « كاترين » الكاعب الحسناء التي كانت واسطة عقد الجماعة وبدر أنسها الساطع . وقد انغمس معهم « موسيه » في كثير من مباذلهم وصحبهم في مباءات متعهم ومراتع لهوهم ، وهكذا أغرق في حيا نشوته بالخمر والمرأة والشعر ، البقايا الداخنة من حياة غرامه التاعس مع « جورج صاند » .

وقد عاب عليه بعض نقاده شدة انغماسه في لهوه وتبذله في مرحه وعربدته للظرفاء ، مما أضاع عليه كثيراً من فرص الانتاج والنظم ، ولكن المتأمل في ظواهر نشاطه العقلي خلال تلك الحقبة (١٨٣٥ — ١٨٣٦) يروعه منها كثرة التوليد والانتاج ، وتعدد ألوانه ومناحيه . فقد كتب من المسرحيات الشعرية لوسي ، ومنزل باربرين ، والشمعدان ، وأكمل « اعترافات فتى العصر » . ونظم ليالي مايو واكتوبر وديسمبر . وكانت قطع إنتاجه جميعاً موفية على التمام والاحكام ، شأن من يصدر فيما يكتب وينظم عن ملكة مطبوعة لا كلفة فيها ولا اعتساف . وقد كانت تلك الحقبة أغنى حقب عمره جميعاً بالروائع والبدائع .

سأله صديقه « ألفريد تاتيه « A. Tattet » في احدى أمسيات مايو البديعة الساجية ، عن سبب اطراقه وصمته وظهوره أحياناً بمظهر الساهم الذاهل ! فأجابه « موسيه » قائلاً : « منذ عام وأنا أعيد قراءة ما سبقت لي قراءته ؛ لقد قلبت النظر في الحياة والناس ، وتأملت في مجتمعاتهم ومعاشرهم ، فلم يطالعني منهم غير المشهد المكرر المسئوم الذي طالما طالعته عيناي من قبل . لكم بذلت من جهود طويلة شاقة ، كي أطرد فلول الذكريات التي ظلت تهاجمني وتنغص عليّ هناءتي . فلما بكيت واستغرقت في بكائي غسل دمعي حزني ؛ وعندئذ شعرت بأني أقوى من ذكرياتي وأحزاني ، واستطعت أن أتحرر من ربقة الماضي . وهاءنذا اليوم قد دفنت شبابي الأول بيدي ، ودفنت معه غروري وكبري . »

كان تصوير الشاعر لحالته ، إنما هو تصوير للحظات السابقة لمرحلة تمخضت فيها شاعريته عن طرفة جديدة من طرفه الرائعة ، تلك التي خلدت نجمه متلألئاً ساطعاً في سماوات القريض .

إنها « ليلة مايو » تنتظره على موعد من مواعيد الربيع ، موسم الحب والأحلام والأزاهير .

ففي ليلة من تلك الليالي المقمرة الزاهية ، أسمع « موسيه » أخاه « بول » بعد عودتهما من نزهة بديعة ، ما دار من حوار بينه وبين عروس شعره «La Muse» . وها هي ذي عروس الشعر تناجي شاعرها منشدة :

أيها الشاعر ، أمسك بقيثارك الصادح ، واطبع على ثغري قبلة .
فهذه الأزاهر والورود ، قد نضت الأكمام عن نوّارها .
أن الليلة ميلاد الربيع ، والأنسام مضطرمة بأنفاسه .
وهذه الأطيار المزقزقة ، تباكر غصونها في انتظار فجره .
إنها تحلق فوق الشجيرة المخضوضرة ، لتحط على أعوادها الرطبة .
فأمسك القيثار ياشاعري ، واطبع على ثغري قبلة .
آه لكم سرت عنك مض الألم .
فيالهفي على شبابك الغريض ، تذبله وقدة الحب وترديه .

—

لا شيء يسمو بقلب المرء كالألم العظيم .
فأجمل ما تسمع من أغاني الحياة ، ينبع من هوة اليأس العميم ، تلفظها آنة معولة في نشيج أبدي أليم .

—

أتراه قد سُرّي عنه ؟ أهو مستطيع أن ينهض من كبوته ، فيمشي بين الناس منطلقاً من عقال همه ، غريقاً في مناه قلبه ، يرضع من ثدي الحياة مواجده الجديدة ، ويرشفها حالماً بمذاق جديد !

هيهات هيهات ؟ فما كان شاعر الألم لينسى نشوة الألم ، وما كانت عذابات قلبه المعنّى لتنسيه ، وهو مخدور ، حلاوة التعذيب !

لم تمهله عروس عمره طويلا ، لقد تقته وحيدا من جديد ، وهذا هو نابه باكيا مستضحكا يبث أنات الذبيح ، وينفث في سمع الدهر حسرات ليلة وطاقة يفرطها من عقد لياليه !

وهكذا بدأ الشاعر نشيد « ليلة ديسمبر » بوصف شبح غامض ظلّ يلازمه ويشابهه منذ أن كان صغيراً يطلب العلم ، حتى هبّ يافعاً غريراً يضطرم قلبه بحميا الحب . ثم خلص من وساوس ذهنه الى وساوس قلبه ، فأمسك بقيثاره ووقع لحبيبته المهجورة ، على أوتار قلبه ، ترانيم غضبه ويأسه : —

ارحلي ارحلي ، فالطبيعة الخالدة ،
لم تهد اليك ما تشتهين ،
يا طفلتي المسكينة المستطلعة .

—

ألا تعرفين الفقر والعوز ؟
اذهبي اذهبي ، واتبعي القدر ،
إن من يفقدك لم يفقد كل شيء ،
فهيا ألقي الى الريح هواءنا المنتهي !

—

يا السمي الأبدي ، أنت الذي طالما أحببته ،
إذا أنا عصيتك ، فلم تصفين محبتك ؟

—

ثم يكشف الستار عن هذا الرفيق الحزين — أي شبحه — ويناجيه قائلا : —
لقد منحتني السماء قلبك ،
فحينما يثقلك وقر الألم ،

جئني ولا يداخلنك القلق ،
فاني متابعك على نهجك ،
ولكنني لن أمسك ،
أيها الصديق : إنني الوحدة !

— ١١ —

فوق قمة المجد

لم يكن من عادة الملك « لويس فيليب » أن يحبو الأدب بتشجيعه ، وعطفه ، وما كان أكابر أدباء عصره ليفوزوا منه بأكثر من ابتسامة عابرة ، وكلمات لا تغني ولا تشبع .

ولقد حزت هذه القضية التي مني بها الادب في نفس شاعرنا المرهف . وكان يشعر في قرارة نفسه بعظم الفارق بين عهد هذا الملك وعهد سلفه العظيم « لويس الرابع عشر » . ولهذا كان دائم الرجاء في أن يعتلي صديقه وزميل دراسته « الدوق دورليان » عرش فرنسا ليمد إلى الادب ورجاله يداً مشجعة حافزة ، ويرصع بنجومهم المتلألئة بلاطه وقصره . وقد كان هذا الامل نعم الحافز له على مواصلة الانتاج والدأب ، فقطع عامي ١٨٣٧ ، ١٨٣٨ وهو عاكف على قراءاته ونظم أشعاره وكتابة مسرحياته . وقد استهوته قصص القاص الايطالي « بوكاشيو » وأثرت الى حد ملحوظ في منهجه القصصي .

وتلقى في أحد الايام كيساً مترعاً بالأصفر الرنان ، وصله من أحد معجبيه ، الذي لم يشأ أن يذكر له اسمه ، فكان لوقع هذا الحادث السعيد في نفس « موسيه » ما هيأ له مادة وحي جديدة . فعزم على أن يكتب قصة يصف فيها سمات الحياة الباريسية وعجائبها ، وهكذا قدم للادب المسرحي قصته الخالدة (Caprice) أي النزوة وأتبعها بقصة أخرى سماها « اميلين » ، حاول أن يصور فيها كيف تكون تضحية الهوى على مذبح العقل والواجب .

وأوحت إليه علاقاته عن تعرّف إليهن في تلك الفترة من نساء ، « كأميه دالتون » و « بولين جارسيا » و « راشيل » وغيرهن من كواعب المجتمع الباريسي في ذلك العصر ، أن

وبينه هو القدر الذي رتب له »[١].

والفاطميون يرون ان طاعة أولياء الله طاعة لله ، ومعصيتهم معصية لله . ومن خانهم فقد خان الله ومن وفّى لهم فقد وفّى لله ، ومن أدّى أماناتهم فقد أدى أمانة الله لأن الله تعالى يقول في كتابه العزيز « ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » ويقول في موضع آخر « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ويقول في موضع ثالث « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » ويقول النبي عليه الصلاة والسلام « من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع الإمام فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصى الله ومن عصى الامام فقد عصاني »[٢]

لذلك يقول الصادق جعفر بن محمد صلوات الله عليه « نحن أبواب الله وأسبابه لعباده ومن تقرّب بنا قرب، ومن استشفع بنا شفع ، ومن استرحم بنا رحم، ومن أعرض عنا ضل »[٣] ويروون عن الحسين بن علي أنه قال « من أحبنا بقلبه وجاهد معنا بلسانه ويده فهو معنا في الرفيق الأعلى، ومن أحبنا بقلبه وذب عنا بلسانه وضعف أن يجاهد معنا بيده فهو معنا في الجنة دون ذلك منزلة، ومن أحبنا بقلبه وضعف أن يجاهد معنا بلسانه ويده فهو معنا في الجنة دون ذلك وليس دون ذلك شيء »[٤].

ولقد استمرت طريقة اختيار الخليفة الوراثية سائدة في الدولة الفاطمية فكان الخليفة عندما يشعر بدنوّ أجله يعهد بالخلافة قبل وفاته[٥] لمن يرى أن يكون ولي عهده وتجدد البيعة بعد وفاته له بالجامع، وله أن يخفي موت والده إن رأى لزوماً لذلك ، فقد ستر الخليفة القائم بأمر الله موت والده المهدي مدة ، كما أخفى الخليفة المنصور بالله موت والده القائم خوفاً من أن يعلمه أبو يزيد مخلد بن كيداد الخارجي. فلما تغلب عليه أظهر موت والده سنة ٣٣٦ هـ مع أنه مات سنة ٣٣٤هـ كما ستر المعز موت أبيه المنصور مدة[٦]

ولما استولى على الدولة الفاطمية الضعف ، انتقل هذا الحق لأصحاب الحل والعقد فكانوا يختارون الخليفة ممن يشتهون غير مراعين أن تكون الخلافة للأكبر فالأكبر من البيت

---

(١) كتاب الهمة ورقة ٥٩ب و ٦٦ أ و ٦٧ أ (٢) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ١٠ (٣) كتاب الهمة ورقة ١٦ أ (٤) كتاب الهمة ورقة ٩ب و ١٠ أ (٥) أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر المخطوط الفوتوغرافي ورقة ٤١ و ٤٣ و ٥٤ و ٨٤ والنجوم الزاهرة لأبي المحاسن ج ٤ ص ١١٢ ـ ١١٣ و ١٧٦ وأخبار مصر لابن ميسر ج ٢ ص ٥٢ و ٥٤ (٦) اتعاظ الحنفا للمقريزي ص ٤٥ و ٦٨ وكتاب المختصر في أخبار البشر لأبي الفدا ج ٢ ص ٩٨ و ٩٩

مؤكداً إمكان قيام « التراجيدية » القديمة بجوار المسرحية العصرية التي تجود بها قرائح الابداعيين وهكذا ظلّ يتوقل صُعُداً في معارج الشهرة الى أن انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية واقتعد مقعده بين صفوف الخالدين.

ومن يومئذ والشاعر عاكف على انتاجه، موالٍ لنظم أشعاره ونثر كتاباته . ولكنه في غمرة دأبه وجهده، لا ينسى مطالب القلب . فهو يتنقل، ولو برغمه، بين محابه ومواجده، كالنحلة لا تني ترفرف فوق الورود والرياحين، لترشف من عطورها وتمتص من رحيقها، شهدها الجني ورضابها المعسول . . .

ولكنه أبداً شاعر الألم والحزن، لا يمده الحب إلاّ الى التعذيب، ولا يمده التعذيب الاّ الى البكاء والأنين :

لقد فقدت قوتي وحياتي،
وفقدت في صداقتي ومرحي،
وسُلبت حتى افتخاري،
الذي كان يُشعرُ بنبوغي .

—

وحينما عرفت الحقيقة،
ظننتها وفية صديقة،
فاذا فهمتها ووعيتها،
مججتها وكرهتها !

—

ولكنها أبدية سرمدية،
وهؤلاء الذين جهلوها،
جهلوا كل شيء !

ooo

ومن يومئذ توالت عليه النكبات والمتاعب، وجاء عام ١٨٤٢ مليئاً بهمومه وأحزانه

فقد روّعه نبأ وفاة صديقه «الدوق دورليان» الذي كان يعقد عليه أعظم الآمال . ثم ما لبث أن فجعه القضاء في صديقه وصفيه «ألفريد تاتيه» . وأناخت الأحداث المتتابعة على كاهله المثقل ، فبدا كالمحطم اليائس الذي استنزفته الأيام ذخائر قلبه ، وكادت تسلبه حماسة وجدانه .

وأسلم همومه وأحزانه الى الموسيقى ، يستلهم روحانية أنغامها العزاء والسلوى . وصبّ سموم نفسه في الشعر ، يبكي بعيونه ما شاء له التوجع والأنين .

ثم نزل عن الآلة الكتابة للمسرح ، حتى أخرج له سلسلة رائعة خلدته من بعد في سماء الأدب العالمي الرفيع ، واشتهرت له مسرحياته المعروفة بالأمثال « Les Proverbes » وقد توّج هذا المجد المتلألىء مسرحيته الكبيرة « لورانزاسيو » التي استلهمها مما اختزنه في طوايا حسه الباطن ، أثناء مشاهداته الطريفة في رحلته إلى ايطاليا مع حبيبته «جورج صاند» .

الخاتمة

كانت هذه الحياة المترعة الكأس بمآسي الحب وشواغل القلب ، كالسهام المسنونة ، سلطت على هذا الجسم الرهيف النحيل ، فانتاشته في كل موضع حتى سقط صاحبه صريعاً وهو يجاهد مستيئساً جراحه وكلومه الغائرة .

كان قد أصيب بذات الرئة في شتاء عام ١٨٤٢ ، وظلت نكسات العلة تلم به على فترات متباعدة ، حتى إذا جاء شتاء عام ١٨٥٦ ، كان الاجهاد المستمر والرهق المتصل قد أذبلا زهرته وأطفئا سراج مقاومته وجلده . لقد شاخ هذا القلب العاني الكليل . وجُهِدَ به ، بعد أن ثقل العمر كله يخفق بين الجوانح خفقات الحياة والحب والألم

لقد كان نبيلاً حتى في ضعفه وعجزه ، فلقد استنجزه وفاؤه لأصدقائه واجب التقدير والمجاملة ، فبينما كان مريضاً نضو سقام ، يتلوّح على فراشه من علة القلب في مارس عام ١٨٥٧ ، إذا به يسمع أن صديقه « اميل أوجيه » قد رشح لعضوية الأكاديمية . فما توانى في أن يركب عربة ليحضر الحفلة ويمنحه صوته ، ويشاطر الصديق فرحته ، وهو في أثناء ذلك لا يكاد يتماسك من هزاله وضعفه !

واشتدت عليه وطأة العلة في اليوم الأول من شهر مايو سنة ١٨٥٧ . ورغم أنه لم يفقد إشراقه وهدوء نفسه إلى حد أن راح كعادته يتحدث عن مشروعاته الأدبية التي يزمع إنفاذها بعد ابلاله من مرضه ؛ الا أن نوبته في هذه المرة كانت عنيفة قاضية. وبينما هو يسأل من احتاط به من الأهل والأصحاب الحزانى الجزعين عن سائر خلانه وأصدقائه ، إذا به ينهض على حين بغتة ، كأن هزته رجفة عصبية ، ويضع يده على قلبه يتحسس خفقاته الضئيلة المتقطعة ، وإذا وجهه يتجهم ويغض بريقه . ولما أن سئل عما اذا كان يشكو من شيء ، أجاب في صوت خفيض لاهث الأنفاس . وهو يضع رأسه على الوسادة : «سأنام ، وإنها لنومتي الأخيرة»!

وما خالج الجميع شك في انه وقد ينام ، لولا انها نومة الأبد ، التي صعدت بأنفاسه الغالية بعد طول انتظار وعذاب .

لقد زاره الموت «كصديق رفيق» كما كان يتمنى .

وهكذا كانت أيامه الأخيرة حزينة فاجعة ، عانى فيها الهوان والسقم ، وعرف خلالها الوحدة المروعة لولا وفاء بعض الاصدقاء . وكانت تعود به الذكريات إلى أيام مضت وأماسي انقضت من سني الشباب ، فيتذكر حبيباته من الشيلات ومتوسطات الحال والبغايا . ولكن طيف الحبيب الاول ما كان ليفارق مخيلته ، انه خيال المرأة التي أشعرته بجميع انفعالات القلب المتناقضة ، من كبرياء الانتصار الى حرارة العاطفة الى شفقة المصاحبة الى ذلة الخيانة الى ألم الغيرة وخيبة الهجران ، انها المرأة ذات العيون العميقة السوداء ، إنها «جورج صاند» ! ألا ما أصدقه حين قال :

« ليس ثمة ما يبقى على وجه الرمس » ،
« غير دموع تسكبها العيون بين حين وآخر ! »

المراجع : References

1 — Biographie d'Alfred de Musset (par Paul de Musset)

2 — La vie amoureuse d'Alfred de Musset (par Maurice Donnay, de l'Academie. Française.

3 — Un grand amour romantique (par A. Feugère).

4 — Alfred de Musset (by Henry Dwight Sedgwick).

فهرس الكتاب

٣ تصدير

٥ الشاعر رمز لعصره

٦ أسرة الشاعر

٨ ميلاد الشاعر

١١ مرحلة التعليم

٢٠ هوايات الشاعر

٢٣ اول العهد بالانتاج الادبي

٢٨ جنة الحب وجحيمه

٣٤ مدينة الهوى والحلم

٤٩ تكمير وانتاج

٥٨ فوق قمة المجد

٦١ الخاتمة

فك الاغلال

بحث في الثقافة التقليدية وعلاقتها بالتربية القومية

بقلم اسماعيل مظهر — ظهر مع مقتطف يناير ١٩٤٦

—

الالوهية والفكر

بحث في العقائد المألوفة

مترجم بقلم اسماعيل مظهر عن لورد بلفور

وهو بحث مثبت للالوهية نافٍ لما يدعيه بعض الماديين

من ان في المادية الطبيعية قصداً او ما يشبه القصد

ظهر مع مقتطف فبراير ١٩٤٦

—

الفريد ده موسيه

شاعر الحياة والالم

بقلم الاستاذ صلاح الدين الشريف

يظهر مع مقتطف مارس ١٩٤٦

—

الازهر

بين الماضي والحاضر

بحث في تاريخ الازهر الشريف وتطوره ومنزلته العلمية

والدينية واتصاله بحياة الاسلام من قلم الاستاذ منصور

علي رجب المدرس بكلية أصول الدين

يظهر مع مقتطف ابريل ١٩٤٦

اطلبهما مع مقتطف مارس . وثمن النسخة ١٠ قروش